أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٤﴾

شرح الكلمات:

القسطاس: الميزانُ؛ أقوَمُ الميزانِ (الأقرب).

التفسير: يتضح من هذه الآيات أن قوم شعيب عليه السلام كانوا مصابين بمرض الغش والخداع في التجارة على نطاق واسع، بالإضافة إلى الأعمال الوثنية. كانوا يعيشون على أعمال التجارة، فكانوا يغشون فيها إذ كانوا ينقصون في الكيل والوزن، وربما كانوا قد صنعوا موازين ومكاييل مزورة، فإذا أخذوا من الناس استعملوا موازين غير التي كانوا يستخدمونها عندما يعطونهم. ثم إنهم كانوا مهرة في الغش بالتلاعب بكفّة الميزان أيضًا، فكانوا ينهبون الناس كيلاً ووزنًا. فنهاهم شعيب عليه السلام عن الغش في التجارة، ولكنهم لم ينتهوا بل ازدادوا غشًا وخداعًا. فلما بلغ السيل الزبى، نـــزلت لإهلاكهم ملائكة السماء.

من المؤسف أن هذا المرض متفشّ في هذا العصر على نطاق واسع، فقد اختفت الأمانة في بلادنا كلية، ويحاول كل شخص أن ينهب غيره ويضره إلى أقصى حد ممكن. يريد الزبون أن يشتري حاجياته بأبخس سعر، بينما يحتال عليه صاحب المحل ليبيعه أردأ شيء. إني لا أذهب للتسوق، ولكن بما أن حاجيات البيت تُجلب من السوق، فأستطيع أن أجزم أن الناس لا يلتزمون عادة بالأمانة في البيع والشراء. فمثلاً يضعون التراب في الدقيق، ويضيفون أشياء رديئة إلى السكر، ويمكن أن تلاحظ هذا الغش بأدنى تأمل. فمثلاً إذا أمعنت النظر وجدت في كل ملعقة سكر شيئًا من التراب، مما يدل أنه مغشوش. وكذلك تجد ذرات التراب والرمل في الطحين حيث تسمع صوت الرمل إذا مضغت لقمة الخبز. إن الناس في بلادنا لا

يهتمون عادة بصحتهم، فلا يمضغون الطعام جيدًا، ولكنهم لو مضغوه جيدًا لوجدوا أنهم لا يأكلون خبزًا من الدقيق بل يأكلون التراب، لأن تسعين بالمئة من أنواع الدقيق يكون مغشوشًا بذرات التراب والرمل، وهذا ضار بالصحة جدًا.

ثم إن من حيل أصحاب المحلات أنهم يبيعون الدقيق غير الخالص، ويتقاضون سعر الخالص منه. مع أنه ليس الغش والخيانة أن تأكل مالاً كثيرًا لإنسان بغير حق فحسب، بل إذا أخذت قرشًا واحدًا بغير حق فهذا أيضًا غش وخداع. كذلك ليس الغش فقط أن تضيف إلى الدقيق خمسة بالمئة من التراب، بل لو أضفت إليه واحدًا بالألف من التراب فهذا أيضًا غش وخيانة وعمل قبيح. ذلك أن الخير أو الشر يتعلق بالقلب والنية. فلو أن أحد الفقراء أنفق قرشًا واحدًا خالصًا لوجه الله ﷻ ، فهو ليس أقل تضحية من شخص ثري ينفق مئة ألف روبية في سبيل الله تعالى، كذلك من غشّ في تجارته خمسة بالمئة فهو غشاش، ومن غش واحدًا بالألف فهو أيضًا غشاش مثله؛ ذلك لأن جزاء السيئة يكون بحسب النية مثل جزاء الحسنة تمامًا. فكما أن الله ﷻ لا ينظر إلى أن الفقير قد أنفق قرشًا واحدًا فقط وأن الثري أنفق مئة ألف روبية، بل ينظر إلى إخلاص كل واحد منهما فيجزيه بحسبه، كذلك لا ينظر الله ﷻ أن هذا قد غشّ بمقدار خمسة بالمئة وذلك قد غش بمقدار واحد بالألف، إنما يقول الله ﷻ إن كل واحد منهما غشاش، لأن الطهارة أو النجاسة منوطة بالقلب، فكما أن قليلاً من الحسنة أو كثيرها تُعتبر حسنة، كذلك إن كثيرًا من السيئة أو قليلها يُعتبر سيئة أيضًا على كل حال.

قد لا يقوم البعض بأعمال الغش بشكل مباشر، بل يُحضر هذه الأشياء من مكان آخر غاضًا النظر عما إذا كانت مغشوشة وناقصة، إلا أن ذلك لا يُبرئ ساحته من الجريمة، لأنه ذهب إلى الطحان وعلم أن الدقيق عنده مغشوش ومع ذلك اشتراه منه، فلذلك فهو مذنب إذ جلب الدقيق المغشوش وهو يعلم أنه كذلك. كان عليه أن لا يجلبه، ولكنه جاء به لأن سعره منخفض لكونه مغشوشًا، فثبت أنه حاول جلب الربح غير المشروع ولو بطريق غير مباشر. فمثلاً إذا كان هذا يعلم أن طحانًا يبيع الدقيق الجيد بمئة وواحد من الروبيات لكل أربعين كيلو غرامًا، ولكنه

لا يشتري منه بل يشتري من طحان آخر يبيع الدقيق الرديء بنفس المقدار بمئة روبية، فإنه غشاش أيضًا إذ ساعد هذا الطحان على الغش. لا شك أنه لا يقوم بالغش مباشرة، ولكنه يجلب سلعًا رديئة ليبيعها للناس، لذلك فهو أيضًا غشاش كمثل من يغش بيده.

هناك في إنجلترا عصابات للسارقين الذين يقومون برعاية الأيتام الصغار ثم يستغلونهم في القيام بالسرقات، فهل تظن أنهم أقل جريمة من الأيتام السارقين حيث لم يقوموا بالسرقة أنفسهم؟ كلا بل إنهم سارقون مثل الذين يسرقون بأيديهم. كذلك إذا جلب صاحب المحل دقيقًا رديئًا من بعض الطحانين وهو يعلم أنه رديء، فإنه مجرم كالذي يغش الدقيق بيده بالتراب والرمل.

وهناك من تجّار الغلال الأمناء في الظاهر الذين ينشرون الحبوب في الشمس، ثم عندما يجمعونها يضيفون إليها بعض التراب والرمل، ومع ذلك يظنون أنهم أمناء جدًا، مع أنهم ليسوا كذلك أبدًا.

بالمثل إن وكلاء شركات بيع الغلال عندما يشترون الغلال يضيفون إليها بعض التراب الناعم، وبما أن هذه الغلال تكون بكميات هائلة فلا ينكشف خداعهم على جميع الناس.

ومنهم من يبلل الغلال لتزداد وزنًا. ومنهم من إذا اشترى قال لصاحب المحل: لقد اشتريت منك سلعًا كثيرة فيجب أن ترخّص لي السعر، أما صاحب المحل فيقول للمشتري: هل تريد أن تسلبني كل شيء؟ وهناك روايات غريبة عن تجار مدينة "بومبائي". يُقال أن منهم من يستعمل ثلاثة أنواع من الموازين والمكاييل: مستقيمة، وناقصة، وزائدة، وقد سموها بأسماء غريبة جدًا مثل "سبحان الله"، "أستغفر الله"، و"لا حول ولا قوة". ويستخدمون هذه الموازين نظرًا إلى نوعية زبائنهم، فإذا كان الزبون ذكيًا يأمرون عمّالهم بإحضار الميزان المستقيم قائلين مثلاً: أَحْضِرْ "سبحان الله". وإذا كان الزبون ساذجًا أمروا بإحضار الميزان الناقص. وكذلك من دأب العطارين المحتالين عندنا، فكلما يتفشى وباء ما في البلاد، يصف أطباء الأعشاب لمرضاهم مياهًا مقطرة لبعض النباتات مثل الورد و"عنب الثعلب" و"كعب الثعلب"

مثلاً، فيذهب المريض إلى العطارين، فإذا كان العطار أمينًا و لم يوجد عنده الماء المطلوب، قال للزبون: لا يوجد عندي هذا الماء حاليًا، ولكن العطار الغشاش سيقول: عندي كل ماء، فهذا "ماء الورد"، وهذا ماء "عنب الثعلب"، وهذا ماء "كعب الثعلب"، وهذا ماء "الهندباء"، فيعطيه قارورة مليئة بالماء العادي.

ورد في تاريخ الطب الإسلامي أن أحد الملوك العباسيين قال لحاشيته مرة: إن الطب يتطور في هذه الأيام بسرعة. فقال بعضهم: كيف يمكن أن يتطور الطب وليس هناك عطارون أمناء؟ فمهما وصف الطبيب وصفة عالية الجودة فلا فائدة منها. فقال الملك: إن في بغداد ما بين خمسمائة إلى ستمائة محل للعطارين، فيمكن أن تجربوا ذلك. فكتبوا اسمًا زائفًا لعشبة وبعثوا من يحضرها من العطارين. فأخذ العطارون يبعثون أعشابًا مختلفة، فبعضهم بعث "عرق السوس" مثلا، وبعضهم "العناب" مؤكدًا أنها العشبة المنشودة. غير أن عطارًا واحدًا قال: لا يوجد عندي هذه العشبة و لم أسمع اسمها من قبل. فسأل الملك: أي العطارين صادق؟ فأجابه الحاشية: كلهم كذبوا إلا الذي قال لم أسمع اسم هذا الدواء من قبل، فإننا قد كتبنا اسمًا زائفًا لنختبر هؤلاء العطارين. فأصدر الملوك المسلمون الأوامر بإخضاع جميع العطارين للامتحان. وأُسست المدارس لمعرفة الأعشاب والعقاقير، و لم يسمح لأحد ببيعها إلا بعد النجاح في هذا الامتحان.

لقد رأيت في "كشمير" أن بعض الناس يُحضر صرة الغزال ويقول لك: إن فيها قرابة مئة غرام من المسك الخاص الذي ثمنه اثنان وثلاثون روبية، ولكني بحاجة ماسة إلى المال فأبيعه لك بخمس وعشرين روبية فقط. وبعض الأحيان يبيع لك هذه الصرة بنصف روبية أيضًا! فتشتريه وأنت تظن أنك أذكى إنسان في العالم ولكنك حين تفتح الصرة فلا تجد فيها إلا دمًا متجمدًا للحمام، فتعلم أنك مخدوع ولستَ أذكى الناس، بل إن الشخص الذي غشك ونهبك هو الأذكى! الواقع أن هؤلاء القوم يضعون بعض المسك خارج كيس الصرة ويملأونها بدم الحمام الذي يضيفون إليه بعض الكيمياويات، فيبدو كالمسك تمامًا، فيشتريه من لا خبرة له ويظن أنه قد

قام بصفقة رابحة إذ اشترى صرة المسك بنصف روبية، مع أنه ليس فيها إلا دم الحمام الذي لا يساوي شيئًا.

يُصنَع في "كشمير" نوع معين من السجاد الشهير يُنسَج من خرق الأقمشة الصوفية ويسمى "غابها". وكنت ذات مرة في زيارة بلاد كشمير وأُعجبتُ بهذا السجاد وأردت شراء قطع منه لأهديها لأقاربي. وكان في مدينة "إسلام آباد" بكشمير نساج شهير بمهارته في نسج هذا السجاد، فقلت له: أريد أن آخذ قطعًا من هذا السجاد هدية لبعض أقاربي في البنجاب، فاصنعْ لي بضع قطع جيدة منه. فقال: حاضر، وطلَب العربون. فدفعت له العربون، وذهبنا للتنـــزه في الجبال. وأخبرته بمقاييس غرفنا وأكدتُ عليه أن تكون السجادات بحسب تلك المقاييس تمامًا. فرضي وقال: لا تخف يا سيدي. وعندما رجعت إليه عرفت فورًا برؤية السجادات أنها ليست بالمقاييس الصحيحة. وعندما قسناها وجدناها أقل من المقاييس المطلوبة بشبر طولاً وعرضًا. فقلت له: لقد خدعتني خدعة كبيرة، وصنعتها أصغر من المقاس المطلوب. فأخذ يصرخ ويقول: ماذا تقول، إني مسلم، إني مسلم. فقلت: صحيح أنك مسلم ولكنك لم تفِ بوعدك معي. فدعوت شهودي الذين شهدوا لي، فذكّرته بوعده مرة أخرى، فأعاد قوله على طريقة الكشميريين: إني مسلم، إني مسلم. وكان عمري إذّاك حوالي عشرين سنة، فكنت أغضب لأنه لا يستحي ويعزو فعله إلى الإسلام. لماذا لا يعتذر ويطلب العفو؟ لماذا يقول مرارًا وتكرارًا: إني مسلم ومن حقي أن أغش؟ وكأن الإسلام قد انحط لدرجة أن المسلم يرى الغش حقًا مشروعًا له.

عندما زرتُ كشمير أول مرة علمتُ أن صادرات تجارة المصوغات الفضية الكشميرية وحدها إلى أوروبا كانت تبلغ عشرة ملايين روبية. وهذا يعني أن ربح التجار الكشميريين في هذه التجارة وحدها كان يتراوح ما بين مليونين ومليونين ونصف مليون من الروبيات، إضافة إلى أجرة العمل. فقيل لي إن هذه التجارة أُصيبت بالكساد ونقصت الآن إلى مليون ونصف مليون فقط. وذلك لأن التجار الأوروبيين شكوا من رداءة الصنع والجودة. فأحيانًا كان التجار الكشميريون

يصدرون مصوغات جيدة وأحيانًا رديئة ومغشوشة. ولو أنهم كانوا أمناء في عملهم لبلغت تجارتهم اليوم أربعين مليونًا. علمًا أن الأعمال التجارية لم تكن على نطاق واسع في الماضي، وإنما ازدهرت في هذا الزمن. فإذا كانت تجارة المصوغات الفضية الكشميرية بلغت عشرة ملايين روبية في ذلك الزمن، فلا بد أن تكون قد وصلت اليوم أربعة أضعاف. ولكن بدلاً من أن تبلغ تجارتهم أربعين مليونًا ويكون ربحهم فيها ما بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونًا، أُصيبت تجارتهم بالكساد حتى هبطت إلى مليون ونصف المليون. ولو لم يضروا تجارتهم بالغش والخيانة من أجل ربح قليل لازدهرت تجارتهم ازدهارًا كبيرا، ولكنهم خانوا فيها فأصيبت بالكساد. إن الناس يعادون الإنجليز كثيرًا، ولكن أعداءهم أيضًا يعترفون بأمانتهم التجارية. وبعد الإنجليز يثق الناس في التجارة بالأمريكان والألمان وغيرهم من الشعوب، أما الآسيويون فهم مشهورون بالغش في التجارة جدًّا فلا يثق بهم قوم، مع أن رقي الشعوب منوط بصيت أمانتهم. لو كان التاجر المسلم أمينا لاشترى أهل ملّته من محله تاركين محلات الآخرين، وقالوا: إن سلعه أفضل من سلع الآخرين. ولكنه إذا كان يغش في الدقيق الذي يبيعه فكيف يشتري منه المسلمون؟ فعلى كل واحد منا أن يعقد العزم على مكافحة الغش والخيانة والقضاء عليه من بيننا. فإذا كان أبوه أو أخوه أو زوجته أو قريبه أو صديقه تاجرًا، فعليه أن يكشف له أنه لن يسمح له بالغش، وأنه إذا لم يتورع عنه ولم يصلح حاله فسوف يحاربه. فلو قرر كل واحد منا التصدي للخونة والغشاشين لزال هذا العيب من مجتمعنا في ساعة واحدة. إذا كان أخوك أو أبوك أو أمك أو زوجتك من التجار الغشاشين فإنما يفعل ذلك لأنه يعلم أن أقاربه لن يشكوه إلى المسؤولين نتيجة حبهم له. ولكنه لو كان موقنًا بأن أقاربه لن يبالوا بقرابته ومحبته، بل سيرفعون الشكوى ضده حتمًا، فكيف يمكن أن يلجأوا إلى الغش والخيانة ولو لدقيقة واحدة؟ كلا بل سيتوسل الأب إلى ابنه قائلا: اغفر لي ما سلف فإني أعدك أني لن أغش بعد ذلك أبدًا. وكذلك سيقول الأخ لأخيه والزوجة لزوجها إني أتوب عن الغش من اليوم وأعدك إني لن أعود إليه أبدًا فاعف عني هذه المرة. فالحق أن إصلاح المجتمع في أيدينا نحن. إن إصلاح الابن في

يد الأب، وإصلاح الأب في يد الابن، وإصلاح الأخ في يد الأخ، وإصلاح الزوج في يد الزوج، وإصلاح الأم في يد الأولاد. ولو تصديتم للخائنين والغشاشين بهذا الأسلوب فسوف يتم إصلاح المجتمع ليس في أيام بل في ساعة واحدة. ولكنك إذا رأيت صديقك يغش ويخون فغطيت على خيانته وكذبت من أجله فإنك تدمره وتدمر نفسك أيضًا.

الواقع أن الجماعات الدينية لا تخلد بالمال بل بالإيمان. لو كان المال هو مدار الخلود فإن اليهود والنصارى والهندوس أكثر مالاً من المسلمين، فلماذا تركهم الله وخذلهم؟ ذلك لأن المال لا علاقة له بالإيمان. لا جرم أن الله ﷻ أيضًا يعطي عباده المال، ولكنه يعطيهم إياه إنعامًا ليساعدوا به الفقراء، أو اختبارًا ليرى كيف ينفقونه. فلو سلِم إيمان المرء رغم توفر المال عنده لكان خيرًا له وبركة، ولكن إذا أضاع المال إيمانه، فأخذ في النصب والاحتيال كالأشرار، ونهب أموال الناس كاللصوص والغشاشين – فيقوم مثلاً "بالسوق السوداء"، فإذا جاءه زبون لم يبع له السلع بالأسعار المحددة، بل أنكر وجودها عنده أصلاً. أما إذا جاءه أحد سرًا وأعطاه السعر الذي يريده قدم له السلعة فورًا –فإن مثل هذا المال يصبح عذابًا ونقمة عليه. يقال إن شخصًا جشعًا كانت عنده دجاجة تبيض بيضة من ذهب كل يوم، فطمع أن تبيض له أكثر من ذلك، ففكر أنه لو أطعمها أكثر فلربما تبيض بيضتين يوميًا، فبدأ يفتح فمها ويطعمها أكثر من حاجتها، فمرضت وماتت، فحُرم حتى من البيضة الواحدة. هذا مثل الرابحين بطرق غير مشروعة. إنهم يجمعون الأموال بلا شك، ولكنهم يذوقون وبال أمرهم في نهاية المطاف بطريق أو آخر. فالخسارة العاجلة التي تصيب البائع الغشاش هي أنه لو أعطى الزبون شيئًا أقل من الوزن اللازم فوزنه الزبون في بيته ووجده أقل من الوزن فلن يشتري منه بعد ذلك، بل يشتري من محل آخر، وهكذا فإن هذا الغشاش يكسب جنيهًا ويخسر ألفًا.

فالظن بأن المال يُكسب بالغش والخيانة فقط هو غاية الحمق. انظر إلى الصحابة– رضي الله عنهم – الذين كانوا أمناء في أعمالهم وتجاراتهم دائمًا ولم يخسروا أبدًا. فعندما تُوفي الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ ترك وراءه ما يعادل

عشرين مليون روبية في ذلك الوقت، أي ما يعادل عشرين بليون روبية اليوم، وذلك برغم أنه كان يُنفق كثيرًا في سبيل الدين. كذلك ورد في التاريخ أن صحابيًا عرض حصانه في السوق للبيع، وجعل سعره خمس مئة درهم. فأعجب حصانه صحابيًا آخر فأراد شراءه ولكنه قال لصاحبه: بل سأدفع ألفي درهم لا خمس مئة درهم ، لأن الحصان أصيل وثمنه ليس ما قدّرتَ. فأخذ البائع يصر أنه لن يبيعه إلا بخمس مئة درهم، وظل المشتري يُلحّ بأنه سيدفع له ألفي درهم لأنه عديم الخبرة بالخيول وأن حصانه أغلى مما يظن، فكان الآخر يرد عليه: لن أقبل منك مالاً زائدًا تريد أن تتصدق به علي، فإني أعلم حصاني جيدًا وليس ثمنه إلا خمس مئة درهم.

انظروا كيف نرى في الدنيا اليوم ما هو عكس هذه الواقعة. كان المشتري حينذاك يزيد ثمن الشيء، أما اليوم فيبيع البائع بعشر جنيهات شيئًا ثمنه بضعة قروش. فعلى المشتري ألا يحاول إلحاق الخسارة بالبائع، وعلى البائع ألا يغش فيبيع المشتري شيئًا رديئًا، أو ينقص له الميزان أو الكيل.

بعد أن نصح شعيب عليه السلام قومه بالأمانة في تجارتهم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. ويتبين من هذا أن القوم كانت تكثر فيهم حالات القتل والاغتيال والسطو على أموال الناس. كانت بلادهم تقع على الطرق المؤدية إلى الشام ومصر، وكانت القوافل تمر بالقرب منهم، فيبدو أن هؤلاء كانوا ينهبون المسافرين ويقتلون بعضهم. ويدعم هذا القياس أنهم يُسمَّون "أصحاب الأيكة".. أي كانت بأرضهم غابة كبيرة يكثر فيها شجر "السدر" و"الأراك"، ويسهل نهب المسافرين في مثل هذه الغابة لأنها تهيئ كمينًا سهلاً للصعاليك. فنصحهم شعيب عليه السلام بالأمانة في معاملاتهم وتجاراتهم والامتناع عن السرقة والسطو والنهب.

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٥﴾

شرح الكلمات:

الجبلّة: قال الإمام الراغب: قيل للجماعة العظيمة جِبلٌّ (المفردات). فالمراد من ﴿الْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾: الجماعات السابقة.

التفسير: وأضاف شعيب وقال: عليكم أن تخشوا الله ﷻ الذي خلقكم والفئات التي خلت من قبلكم.. أي كيف تعملون هذه السيئات وتفتخرون بها؟ ألم تعلموا أن هذه المنكرات هي التي أدت إلى دمار الأمة التي كانت قبلكم، فلم لا تعتبرون بهلاكهم، و لم لا تفكرون في أسباب زوالهم، فتغيّروا ما بأنفسكم؟

الواقع أن الشعوب تتقدم في الدنيا وتهلك، وهذه الظاهرة مستمرة منذ بداية العالم. فإن التاريخ شاهد على رُقي آلاف الشعوب ودمار آلاف الشعوب أيضًا. والواقع أن ما سجله التاريخ لا يساوي عُشر ما وقع من أحداث منذ بداية الإنسانية، ذلك لأن الإنسان موجود ما قبل التاريخ بوقت طويل. كما أن الأحداث التي وقعت في العصر الذي يسمى "ما قبل التاريخ" أيضًا لم يبقَ معظمها محفوظًا. وقد عاشت آلاف الشعوب في العصر ذي التاريخ المحفوظ وفي العصر غير محفوظ التاريخ، وازدهرت وبلغت أوج الرقي، ثم أصابها الانحطاط فهلكت وبادت.

وهذه حقيقة لا يسع إنكارها، وبتعبير آخر فكما أننا لا يسعنا إنكار حياة الإنسان وموته، كذلك لا يمكننا إنكار حياة الأمم وموتها. ولكن الغريب أن الإنسان كما يشاهد موت الناس كل يوم ومع ذلك ينسى موته، كذلك فإن الشعوب تشاهد زوال الأمم الأخرى ومع ذلك لا تعتبر به.

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر حديثًا مفصلاً، إذ تجده مليئًا بأسرار رُقي الشعوب بدءًا من سورة "الفاتحة" إلى سورة "الناس". لا شك أن الله تعالى قد بين في القرآن الكريم كثيرًا من المواضيع الأخرى من قضايا عقلية وعلمية وروحانية ومادية واقتصادية وسياسية، ولكنه ﷻ قد بين في سورة الفاتحة نفسها كل ما يتعلق برقي الأمم وانحطاطها، وستجد أنه تعالى قد بدأ فيها هذا الموضوع وختمه أيضًا بأسلوب رائع. والحق أن مثال سورة الفاتحة كمثال عيون صغيرة تتحول في نهاية المطاف إلى نهر عظيم. ذلك أن الإنسان القصير النظر حينما يرى النهر ينبع من عين

ماء يظن أنه جدول صغير سيجفّ وينتهي بعد مئة متر أو أكثر قليلاً، ذلك لأنه لا ينظر إلا إلى ذلك الجدول الصغير الذي ينبع من العين، والذي يمكن أن يعبره بقفزة واحدة، ولكنه عندما يمشي مع الجدول تأخذه الحيرة حينما يرى بعد قليل أنه قد أصبح كبيرًا، وعندما يتقدم أكثر يأخذه العجب أكثر، حيث يرى أن الجدول الكبير أصبح نهرًا، وحينما يمشي معه أكثر يُصاب بالذهول إذ يرى أن ذلك الجدول الصغير الذي كان قد نبع من العين الهادئة والذي كان يعبره بقفزة واحدة قد تحول إلى نهر عظيم. فمثلاً إن نهر "جِهْلُم" الذي يصبح نهرًا كبيرًا حين يدخل في منطقة "البنجاب"، منبعه صغير جدًا لا يتجاوز بضعة أقدام، ومن ينظر إلى منبعه لا يمكن أن يُصدق أن هذا الجدول الصغير النابع من تلك العين سوف يتحول نهرًا عظيمًا يسقي مئات الآلاف من الفدانات في منطقة البنجاب، وأن الناس سيعبرونه في القوارب مسافات شاسعة.

هذا هو مثال سورة الفاتحة، حيث تبدأ كجدول صغير نابع من عين هادئة، ولكنها تتحول إلى نهر عظيم في نهاية المطاف. فإن الموضوع الذي ابتدأ بقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ كجدول صغير نابع من عين ماء قد أصبح عند قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ واضحًا وضوح النهر العظيم. وبوسع كل إنسان لم يفقد البصيرة الروحانية أن يدرك بسهولة أن الله تعالى قد بين في هذه السورة الوجيزة كل ما يتعلق برقي الأمم وزوالها بيانًا واضحًا. فقد تناول في قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ موضوع رُقي الأمم، حيث علّمنا أن نسأله تعالى الهداية إلى الطريق الذي إذا سرنا فيه فزنا بنعمه، وأن يجعلنا من الذين تقدموا وارتقوا، أما قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ..﴾ فبيّن فيه أن كل أمة حققت الرقي تردّتْ في النهاية وهلكتْ. بيد أن الله ﷻ قد علّمنا في هذا الدعاء نفسه طريقًا نتجنب به الانحطاط والتردي. لا شك أن الله ﷻ هو أعلم بأحداث المستقبل، ولكنني أرى أنه ﷻ قد نبّه المسلمين بهذا الدعاء أنهم إذا تصرفوا بحذر وتعقُّلٍ فيستطيعون أن يتجنّبوا التردي والانحطاط. والحق أن المسلمين لم ينجوا من التردي في العصور الماضية لأنهم نسوا هذا التحذير. بيد أن الله ﷻ قد بشّرنا بنشأة ثانية للإسلام أيضًا، وعصرها

يبدأ ببعثة المسيح الموعود عليه السلام، فبإمكان الأمة الإسلامية أن تعمل بحسب دعاء: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فتتجنب الضلال وتعيش فترة أطول من الأمم الأخرى. علمًا أن الدعاء الذي يعلّمه الله ﷻ عباده لا يضيع أبدًا إذا عملوا بحسبه، لأنه يتضمن وعدًا منه تعالى بأنه سيعطيهم ما يسألونه حتمًا، إذ لا يليق بعظمة الله ﷻ أبدًا أن يُعلّم عباده دعاء ثم لا يستجب لهم إذا قاموا به. بل دَعْك من وعد الله تعالى فإنه شيء عظيم، إذ إننا نرى أن ما يعد به بعض من الناس أيضًا يكتسب أهمية كبيرة. فلو وعدك الملك أو الحاكم أو الوالي أو المسؤول الكبير بشيء فرحتَ فرحة كبيرة، موقنًا بأنه لن يخلف وعده، مع أن الأمر الواقع أن هؤلاء الذين وعدوك قد يموتون قبل إيفائهم الوعد، وقد يقولون لك إنهم لا يستطيعون الآن إيفاء وعدهم، ومن الممكن أن يفقدوا سلطتهم فلا يعودوا قادرين على إيفاء ما وعدوك به، ومن الممكن أن يتم ترحيلهم إلى منطقة أو دائرة حكومية أخرى. ولكن الله أزلي وأبدي لا يموت ولا يتغير ولا تُسلب قدرته ولا سلطته؛ لذا فعلينا أن نكون أكثر ثقة بوعده تعالى ممن يثق بوعود الملوك والحكام، فلا نشك أبدًا في إيفاء الله ﷻ بوعده. فما دام الله تعالى هو الذي قد علّمنا هذا الدعاء فهو يتضمن وعدًا ربانيًا بأنه تعالى سيُؤخر عن المسلمين ببركة هذا الدعاء ما أصاب الأمم السابقة بعد رقيها من زوال وانحطاط، وسوف يُطيل فترة رقيهم وازدهارهم.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول إن أحد أولياء الله تعالى كان يقوم باستدلال عجيب من حركتَي المَدّة والشَدّة الواردتين في قوله تعالى: ﴿ولا الضَّالِّين﴾، فكان يقول أن فيهما إشارة إلى طول فترة رُقي المسيحيين. (حقائق الفرقان: تفسير سورة الفاتحة ص ٢٢)

ولكني أقول إن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يتضمن أمرًا أعظم مما ذكره هذا الولي، وهو أن الله تعالى إذا كان لا يريد تحقيق هذا الدعاء في حق المسلمين فلماذا حثَّهم على القيام به أصلاً؟ فما دام ﷻ قد أمرنا أن ندعوه بهذا الدعاء مرة بعد أخرى فهذا دليل على أنه سيستجيبه لنا حتمًا. وكان المسيح الموعود عليه السلام يقول دائمًا إذا كان من المستحيل وجود قوم يكونون مصداقًا لقوله

تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في الأمة فلماذا علّم الله المسلمين هذا الدعاء أصلاً؟ كذلك أقول إذا كان الله ﷻ لا يُريد إنقاذ المسلمين من الزوال والهلاك فلماذا علّمهم دعاء: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. فكما أنه تعالى علّمنا دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ليخبرنا أنه يريد أن يخلق في الأمة فئةً تكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، كذلك فإنه تعالى لم يعلّم المسلمين دعاء: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ إلا ليؤكد أنهم إذا عملوا لن يدَعهم الله تعالى ليكونوا من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. فإذا كانت المَدّة والشَدّة في كلمة ﴿الضَّالِّين﴾ تُشيران إلى طول فترة رقي المسيحيين، فمن باب أولى أن يتضمن قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ وعدًا منه أنه سيجعل فترة رُقي المسلمين أطول من فترة رُقي المسيحيين، ويُنجيهم من أن يكونوا من الضالين.

لا شك أنه يتضح من الأحاديث أنه عند قرب القيامة لن يبقى في الدنيا إلا أشرار الناس (البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن، ومسلم، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء)، ولكن من ذا الذي يمكنه تحديد زمن قرب القيامة؟ إنما علمها عند الله ﷻ خاصة وأن القرآن الكريم يخبرنا أن بعض أيام الله ﷻ يساوي ألف سنة، بل خمسين ألف سنة أيضًا (السجدة:٦، والمعارج:٥). وهكذا لو قلنا إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وكان كل يوم منها يعادل ألف سنة، فتصبح هذه الفترة سبعة ملايين سنة، أما إذا كان كل يوم منها يعادل خمسين ألف سنة فيصبح عمر الدنيا ثلاثمئة وخمسين مليون سنة، بل يمكن أن يكون يوم الله تعالى أطول من هذا أيضًا. إذًا فليس بوسعنا تحديد عمر الدنيا، وإنما نؤمن أن هذا الزمن هو الزمن الأخير، وأما تحديده فهذا متروك لعلم الله ﷻ. والحق أن نقاشات الناس حول ذلك مجرد فلسفة، والنقاشات الفلسفية تكون بدون طائل دائمًا، إذ كل ما ورد عن الزمن الأخير إنما هو من قبيل الاستعارات التي يجب أن نترك تفاصيلها لله ﷻ.

المهم أن الله ﷻ قد أخبرنا في سورة الفاتحة أنكم مهما أحرزتم من الرقي كأمة فعليكم أن تضعوا في الحسبان دائمًا أن قدمكم لو زلّت قليلاً لأصبحتم من

المغضوب عليهم أو الضالين، وإذا أمسكتم بالله بقوة ودعوتموه باستمرار بأن يُثبّت أقدامكم على الصراط المستقيم فسوف يشملكم بفضله ويحميكم من الزوال والدمار.

والواقع أن شعيبًا عليه السلام قد لفت أنظار قومه إلى هذه الحقيقة نفسها، فذكّرهم وقال ألم تروا كم من قوم خلوا من قبلكم وكانوا أقوى الأمم في عصرهم ولكنهم عصوا الله سبحانه وتعالى فأُهلكوا ودُمروا، فلمَ لا تتقون الله تعالى في حياتكم التي هي أيام معدودة؟ ولِم تلجأون إلى حيل وتدابير غير مشروعة من أجل المتع المادية الفانية؟

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٦﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٧﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٨﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩٢﴾

شرح الكلمات:

المسحَّرين: سحَّره: أعطاه السَّحور (الأقرب). وورد في "المفردات": "سمّوا الغذاء سحرًا من حيث أنه يَدِقُّ ويلطُف تأثيره."

إذًا فكلمة ﴿المسحَّرين﴾ تعني: الذين يتلقون الدعم والتشجيع من بعض الجهات.

كِسَفًا: جمعُ كِسْفةٍ: والكسفة هي القطعة من الشيء (الأقرب).

الظُّلة: أوّلُ سحابة تُظلّ. ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ سحابةٌ أظلّتْهم فلجأوا إلى ظلّها فأطبقتْ عليهم وأهلكتْهم (الأقرب).

التفسير: فأجاب شعيبًا عليه السلام قومه أن تجاسرك علينا يدل على أن أحدًا يدعمك بالمال لتتآمر علينا وتقضي على قوتنا؛ ذلك أن التسحير يعني تقديم الطعام أيضًا كما ذُكر في شرح الكلمات، وهو استعارة عن تقديم المساعدة. فالمراد من قولهم لشعيب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أننا قوم تجار وأن منافسينا في التجارة يدعمونك بالمال كرشوة لتنهانا عن الطرق التي تزدهر بها تجارتنا.

ثم قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ويعني إسقاط الكسف من السماء أن ينـــزل عليهم مطر شديد يدمر زروعهم وبساتينهم كلها. هذا هو المعيار الذي اقترحوه لمعرفة صدق شعيب عليه السلام. فأجابهم أن ربي أعلم بأعمالكم وسيُعاملكم كما يشاء. فأصروا على تكذيبه، حتى حل بهم ما اقترحوه وأخذهم عذابُ يوم الظلّة، أي جاءهم الطوفان وهطلت أمطار غزيرة دمرت البلاد، فصار عذابَ يومٍ مخيف. فجعل الله عز وجل بلادهم آية باقية للأجيال التالية.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد استعمل لهذا العذاب ثلاث كلمات: ﴿الصيحة﴾ و﴿الرجفة﴾ و﴿الظُّلَّة﴾، فقال الله تعالى في موضع: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(هود:٩٥)، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(العنكبوت:٣٨). ولكن الله سبحانه وتعالى لم يصرح في هذين الموضعين أن العذاب الذي حل بهم كان زلزالاً أو آفة أخرى، بينما صرح هنا في سورة الشعراء بلفظ ﴿الظُّلّة﴾ أن العذاب أظلهم على شكل مطر غزير مدمر، فأصبحوا ملتصقين بالأرض في بيوتهم.

علمًا أن لفظ ﴿الصيحة﴾ يُطلق على العذاب وأيضًا على الدمار المفاجئ (الأقرب). وأما ﴿الرجفة﴾ فهي إشارة إلى ذلك المشهد المخيف المرجف للقلوب

الذي رأوه جراء سوء أعمالهم، والذي هزّهم من أساسهم، حيث يُقال: "رجَف الإنسان: لم يستقرّ لخوف عرَض له؛ ورجَف الرعد: تردّدتْ هَدْهَدَتُه في السحاب" (الأقرب). وعليه فقد أُشير بهذه الكلمات إلى مطر غزير مدمر سلب راحتهم، ودفعهم إلى عذاب مستمر لا مخرج لهم منه، حيث أصبح كل واحد منهم محصورًا في بيته حتى سقطت عليهم الجدران بسقوفها فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أن قليلاً من قوم شعيب آمنوا به بينما ظلت الأكثرية منهم محرومين من الإيمان. ولكن يا محمد ﷺ لا حاجة بك للقلق ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أن ربك الذي ربّاك حين كنت في غاية الضعف فبوّأك هذا المقام العظيم، لربٌّ غالب ويرحم مرة بعد أخرى. فبرغم أن الأكثرية من قوم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب لم تؤمن بهم إلا أن الله تعالى سيعاملك معاملة خاصة، لكونك نبيًّا متميّزًا عن سائر الأنبياء؛ فلن يدَع الأكثريةَ من قومك محرومين من الإيمان، بل سيُدخل أكثرهم في كنف رحمته ويشرّفهم بالإيمان بك، رغم عدائهم الشديد حاليًا. هذه هي الحكمة وراء تكرار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ في هذه السورة، حيث أشار الله تعالى بتكرار كلمة ﴿ربك﴾ هنا إلى ربوبيته غير العادية التي شملت النبي ﷺ دائمًا، فبيّن تعالى لنبيّه أن يتذكر كيف قد ربّاه في كنفه منذ الطفولة عند كل خطوة حتى بوّأه هذه المكانة الرفيعة، فكيف يمكن أن يخذله بعد ذلك؟ كلا، بل سيجعله ممتازًا على غيره من الأنبياء في مجال تبليغ رسالته وهدايته أيضًا، مؤكدًا فضله على الجميع.

والواقع أن الله ﷻ قد قام بتربية النبي ﷺ بشكل غير عادي، ورفعه من حالة متواضعة جدًا خطوةً خطوة، حتى بلغ به أرفع مقام وأعلاه، مما لا نجد نظيره في حياة أي نبي جاء إلى الدنيا. لقد أصبح النبي ﷺ يتيمًا وهو طفل صغير، إذ تُوفي أبوه قبل ولادته ﷺ، وتُوفيت أُمُّه بعد ولادته ببضع سنوات. فتربى في كنف جده عبد المطلب بعض الوقت، ولما تُوفي جده تكفله عمه أبو طالب. ولا شك أنه ربى النبي ﷺ بغاية الحب والعطف، وقام بجنبه وسانده في كل موطن حرج، ولكن هناك

واقعة في حياة النبي ﷺ ينفطر لها قلبي ويضطرب دائمًا. ورد في السيرة أنه كلما كانت زوجة عم النبي ﷺ توزع الطعام كان أولادها يتشاجرون للحصول على الطعام، أما النبي ﷺ فكان يجلس صامتًا، وإذا أعطته شيئًا أخذه، ولكنه لم يسألها شيئًا أبدًا (السيرة الحلبية: المجلد الأول ص ١١٦ ذكر وفاة عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب). وإن هذه الواقعة تُقدَّم عادة كدليل على وقاره ورزانته ﷺ، ولكني كلما أقرأها تستولي عليّ الرقة المتناهية. ذلك لأن تلك الفترة من عمر النبي ﷺ لم تكن فترة نبوته بل كانت زمن طفولته، وربما لم يتجاوز عمره عندها ثمانية أو تسعة أعوام، وليس ضروريًا أن نثبت عن طفل في مثل عمره أنه وقور رزين، وإن كان هذا الطفل سيصبح في المستقبل نبيًا؛ فإن النبي ﷺ نفسه يقول: "الصبيّ صبيّ ولو كان نبيًّا". ولذلك كلما أقرأ هذه الواقعة يُصيبني اضطراب شديد، إذ كان النبي ﷺ يدرك نتيجة ذكائه، رغم طفولته، أنه لا يحق له بمطالبة شيء من أهل ذلك البيت، بل إن عمّه وزوجته قد أحسنا إليه إذ أسكناه في بيتهما حبًّا وعطفًا. علمًا أن بعض الأولاد غير الأذكياء لا يفرّقون كثيرًا بين الأم وزوجة العم، فيضايقون أزواج أعمامهم من أجل الطعام كما يضايقون أمهاتهم، ولكن هذا لا يرجع إلى حبّهم لهن وإنما إلى قلة ذكائهم كما قلتُ. المهم أني لا أستطيع أن أمرّ بهذه الواقعة من حياة النبي عليه السلام بدون أن تستولي علي الرقّة المتناهية، فأفكر دائمًا عن المشاعر التي كانت تختلج في قلب النبي ﷺ عندها. كان عمّه يحبّه ﷺ كحب الأب، فكلما كان يرجع إلى البيت يجده ﷺ واقفًا في زاوية من البيت، بينما كان الأولاد يتشاجرون من أجل الطعام وغيره، فمثلاً إذا كانت أمهم توزع عليهم الحلوى فكان الواحد منهم يقول: لن آخذ قطعة واحدة بل قطعتين، وكان الآخر يقول لها: لم تُعطِيني إلا قليلا جدًّا، وهكذا كان كل واحد منهم يتدلل عليها ويطالب بأكثر فأكثر، فكان عمّ النبي ﷺ يمسك بيده ويقول: تعال إلي يا بُنيّ، لماذا أنت جالس هكذا؟ ثم يقدّمه إلى زوجته ويقول: تعال والتصِقْ بامرأة عمك وتشاجر معها من أجل حقك، ولكن النبي ﷺ لم يكن يلتصق بها ولا يسألها شيئًا. الحق أن تصرُّفه هذا كان نتيجة لتلك المشاعر التي أشرت إليها، حيث كان يرى أنه لا حق له على أهل هذا البيت وأن

ما يعطونه إنما هو إحسان منهم. لقد انكشفتْ عليّ هذه الحقيقة حين توفيت زوجتي "سارة بيغم"، وقد ذكرت هذا الأمر في مقال كتبته في نعيها وقد نُشر في جريدة الجماعة آنذاك. فذات مرة انكسر حذاء إحدى بناتي من "سارة" بعد وفاتها، وكنت أسكنتُها في بيت بعض الأقارب. فأمروا خادمًا لهم بإحضار حذاء للبنت من السوق. فلما أحضره كنت واقفًا في ناحية من فناء البيت، فرأيت أن الطفلة أخذت الحذاء في حضنها وأخذت تقفز فرحًا وتقول: آها! قد جاء حذائي، قد جاء حذائي. ثم تغيّرَ وجهها فجأة، فوضعت الحذاء على الأرض ووقفتْ في حيرة وقالت بشكل عفوي: يا الله! لِمَن أُري حذائي الآن؟ لقد وُلدت هذه البنت عام ١٩٢٩م، وقد وقع هذا الحادث في عام ١٩٣٣.. وهذا يعني أن هذه الكلمات قد خرجت من فمها وعمرها أربع سنوات فقط. فحيرني أمرها وقولها، وعندها انكشف عليّ السبب وراء جلوس النبي ﷺ في ناحية البيت صامتًا.

لا شك أن هذه العواطف والمشاعر تبعث على منتهى الاضطراب والحزن، ولكن المرء لو أنفد حياته بعد ذلك في سبيل الله تعالى لرفعتْه هذه المشاعر – التي هي مشاعر ضعف في الحقيقة – من الثرى إلى الثريا. فإن هذا الطفل اليتيم الذي كان الأولاد يمرون بالقرب منه لاعبين راقصين، فيركب بعضهم على كتف أبيه ويلتصق بعضهم بأمه، ويقول بعضهم لها: لن آخذ من الحلوى قطعة واحدة بل قطعتين، ويقول غيره لماذا أعطيته أكثرَ فأَعطِيني الآن مثله، بينما كان هو جالسًا في زاوية من البيت في صمت، ولا يفكر أن يأخذ كلّ الحلوى التي كانت زوجة عمه توزعها على أولادها، بل لا يفكر أن يأخذ نصفها، بل ربعها، بل عشرها، بل لا يبالي ما إذا كانت ستعطيه منها شيئًا أم لا، وإنما يقول في نفسه إنه لا نصيب له في هذه الأشياء لأنه إذا سأل فبأي حق يسأل، ومن ذا الذي يسأل؟ ولكن هذا الطفل اليتيم العديم الحيلة عندما تُوفّي بعد قضاء حياته كلها في سبيل الله تعالى أصبحت الدنيا كلها له و لم يعد لأحد سواه نصيب فيها، وليس هذا فحسب بل ناداه خالق السماوات والأرض قائلا: "لولاك لما خلقتُ الأفلاك." (تفسير الألوسي، قوله تعالى: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً).. أي يا محمد اذكُرْ ذلك

الزمن الذي كنت تقول عندها في نفسك إنه لا حق لك في قطعة حلوى ولا كسرة خبز ولا قطعة لحم، فكنت تجلس في زاوية البيت وحيدًا وتناجي نفسك قائلاً: إن الذين لي حق عليهم لم يعُودوا في الدنيا، ولكنك يا محمد، لا تدري أننا كنا قد اتخذنا قرارًا حتى قبل خلق هذا الكون أننا سنخلق كل هذه السماوات والأرض من أجلك أنت، ولولاك لما خلقناها أبدًا.

لا شك أن هذا الحديث إنما هو من طائفة الأحاديث التي قد رواها الصوفية فقط، ولا يعتبره المحدثون صحيحًا، ولكن الوحي الذي نـــزل على المسيح الموعود عليه السلام قد أكد صحته حيث أُوحي إليه أيضًا: "لولاك لما خلقت الأفلاك" (التذكرة ص ٥٢٥ يوم ٤ مايو/أيار ١٩٠٦، وحقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ١٠٢). فشتان بين حالتَي هذا الإنسان العظيم ﷺ، فإن اليتيم الذي كان يجلس في زاوية البيت معتبرًا أنه لا يوجد له أي قريب في الدنيا، والذي وُلد في بيت فقير، والذي كان يرى أنه لا حق له في كسرة خبز أو قطعة لحم في ذلك البيت، يدخل يومًا مكة فاتحًا، فيُعرَض عليه جميع رؤسائها المجرمين، فيسألهم: أتعلمون ما أنا فاعل بكم؟ وكأن اليتيم الذي كانوا يرون أن لا حق له في خرقة من بيوتهم، قد أصبح كل ذرة من كيانهم في قبضته، فمثلوا أمامه مطأطئين رؤوسهم وأجابوه: افعَلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته*. إذًا فذلك اليتيم الذي لم يحسن إليه أهل الدنيا، والذي أصبح بينهم وحيدًا لا قريب له منهم، وفقيرًا لا حق له عليهم، عندما أعطاه الله القوة قال لهم: "لا تثريب عليكم اليوم".

فاليتيم الذي كان يجلس صامتًا في ناحية البيت قبل وفاته بحوالي ستين سنة، وكان لا يأخذ حقه ولا يلتصق بربة البيت كغيره من الأولاد ، معتبرًا أن لا حق له على هذا البيت، قد غير الله سبحانه وتعالى حال ذلك اليتيم العديم الحيلة رأسًا على عقب، حيث صار عونًا وسندًا للدنيا كلها، وأصبح بمنـــزلة الأمّ للإنسانية كلها. إن ذلك

* انظر الهامش على صفحة ١٧٥. (المترجم)

الطفل اليتيم الذي كان يومًا بدون أب وأم قد أصبح أبًا وأمًا للدنيا كلها، وليس هذا فحسب بل إن أزواجه أيضًا أصبحن أمهات للمؤمنين. فلم تعُدْ هذه الأُبُوّة منحصرة فيه، بل تعدّت إلى الآخرين، وأرست في العالم عظمة القوم الذين كانوا على صلة معه ﷺ.

إذًا، فإن الله تعالى قد أشار بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إلى ما أنعم به على محمد ﷺ من منن عظيمة، مؤكدًا له أن الذي منحه هذا الرقي العظيم لن يضيعه في المستقبل أيضًا، بل سيحقق له كل ما تمناه، وسيكتب له الفتح والغلبة على الدنيا كلها، ولن تكون غلبة محدودة في زمن معين، بل سيكتبها له مرة بعد أخرى، لأنه رحيم يرحم مرة بعد أخرى. بتعبير آخر، عندما تخيّم الظلمة على الدنيا سيرى الناس أن شمس صدق محمد رسول الله ﷺ قد أشرقت على الدنيا بكل ضيائها وبهائها ثانية.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٣﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٧﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٨﴾

شرح الكلمات:

زُبُر: الزبر: جمع الزَّبور وهو الكتاب (الأقرب).

التفسير: بعد الحديث عن موسى وإبراهيم ونوح وغيرهم من الأنبياء المبعوثين إلى أقوام معينة، والذين كان الوحي النازل عليهم خاصًا لهداية أممهم فقط، يُخبر الله تعالى أن وحيه الذي أنـــزله على محمد ﷺ هو للإنسانية جمعاء، وبينما كان وحيه السابق دليلاً على ربوبية الله تعالى فقط، فإن وحيه الجديد دليل على ربوبيته للعالمين

جميعًا. وقد نـــزل بهذا الوحي الروحُ الأمين، ذلك لأن وحي الأنبياء السابقين قد تعرض لأنواع الفساد وقد قصّر العباد في حفظه وحمايته، فأنـــزل الله تعالى هذا الوحي على محمد ﷺ محفوظًا بواسطة الروح الذي هو أمين. وبما أنه لا بد من أن يبلغ الوحي بطريق سليم إلى صاحبه حتى يفهمه جيدًا، فقد أنـــزله الله تعالى على قلب محمد ﷺ. ثم إن هذا الوحي مذكور في كتب الأولين، بمعنى أن جذوره وأصوله موجودة في تلك الكتب كما أن الأنباء عن نـــزوله موجودة في تلك الصحف.

واعلم أن من أعظم ما يمتاز به القرآن الكريم عن سائر الصحف أنه يعرض على الدنيا فكرة ﴿رب العالمين﴾. والحق أن فكرة رب العالمين لم تكن موجودة في الدنيا قبل القرآن بصورتها الواضحة. لا شكّ أن الناس كانوا يؤمنون بأن هناك إلهًا هو خالق هذا الكون ومالكه، ولكن تصورهم عن الإله كان محدودًا؛ ذلك لأن تعاليم الديانات السابقة كانت مختصة بأقوامها فقط، كما أن المشركين على وجه الخصوص كانوا يقدّمون آلهة خاصة بهم فقط، ولذلك تجد فرعون أيضًا يقول لموسى عليه السلام أثناء الحوار: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:٢٤). أي يا موسى من هو رب العالمين الذي تدعي أنه بعثك. ثم إن فرعون لما غرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾(يونس:٩١). أما القرآن الكريم فقدّم فكرة ﴿ربّ العالمين﴾ بشكل واضح، وبالتالي قد أرسى دعائم اتحاد الشعوب، الأمر الذي كان محالاً من قبل نظرًا إلى كون الشرائع السابقة مختصة ببعض الأمم. فإنك إذا طالعتَ التوراة وجدتها تقول: "مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيل الذي أرسلك" (صموئيل الأول ٢٥: ٣٢)، وتقول أيضًا "مباركٌ الربُّ إلهُ إسرائيل من الأزل إلى الأبد" (أخبار الأيام الأول ١٦: ٣٦)، وتقول أيضًا: "مبارَكٌ الربُّ اللهُ إلهُ إسرائيل الصانعُ العجائبَ وحده" (المزامير ٧٢: ١٨). ولكن القرآن الكريم غيّر هذا التصور كلية، فعَرَضَ اللهُ سبحانه وتعالى على العالم كربِّ العالمين، مبيِّنًا أنه تعالى ليس ربًّا لبعض الأفراد والشعوب فحسب، بل هو رب كل مخلوق. فقد افتتح القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي ليست بركات الله الذي هو رب العالمين مخصوصة بقوم دون قوم،

بل كما أن فيوضه المادية تصل إلى الجميع كذلك فإنه لم يحرم أحدًا من خلقه من فيوضه الروحانية. وقد حيرت هذه النظرية القرآنية الكافرين جدًا حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾(ص:٦).. أي هل قام بخلط الآلهة الكثيرة وجعل منها إلهاً واحدًا؟ إذ كان من المستحيل عليهم أن يتصوروا أن هناك في الحقيقة إلهًا واحدًا فقط، وأن كل من سواه من آلهة فهي باطلة زائفة. ذلك لأنهم كانوا يسمعون من اليهود والنصارى أن إلهنا غير إلهكم. إذًا، فكانت عقيدة التوحيد تُعرَض عليهم من قبل تلك الأمم ولكنهم كانوا لا يفهمون منها أن إله الجميع إله واحد، بل كانوا يظنون أنه إذا كان هناك إله واحد، فإنه إله بني إسرائيل أو المسيحيين فقط، وإذا كان هذا صحيحًا فلم يبق لهم أي إله! فجاء الإسلام وبيّن أن للمؤمن والكافر جميعًا إلهًا واحدًا وليس هناك إله سواه. وهذه الرسالة الواضحة كانت غريبة للدنيا. لقد عُرضت هذه الرسالة الغريبة على الدنيا بواسطة محمد ﷺ الذي كانت بعثته أيضًا غريبة، حيث بُعث إلى الدنيا كلها، بينما كان الأنبياء السابقون مبعوثين إلى أممهم الخاصة فقط. لقد تم إرساء نظرية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في الدنيا بواسطة محمد ﷺ، مع أنه قد وُلد في بلد منعزل عن باقي العالم، إذ لم تكن للعرب صلات وطيدة بباقي العالم، بل كانت دنياهم منعزلة منحصرة في الجزيرة العربية فقط. وإذا كانت لديهم أي فكرة عن باقي الشعوب فهي فكرة الكراهية فقط. كان العرب متكبرين حتى كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من أي شعب آخر، وإن كانوا يدينون للإمبراطورية الرومانية والفارسية بالسيادة السياسية، فكانوا يفدون إلى بلاطهم ويقدمون لهم التبجيل والاحترام، ليعطوهم شيئًا. وهذا يعني أن الرومان والفرس كانوا يحتقرون العرب من الناحية السياسية، بينما كان العرب يحتقرونهم وباقي العالم من الناحية القومية. إذًا، فكانت هناك أمور عديدة، فأوّلاً ما كانت العرب تعترف بأن الدنيا موحدة جغرافيًا وقوميًا، وثانيًا: كان عدد الذين يذهبون منهم إلى بلاط الرومان والفرس قليلاً جدًا، حيث لم يخرج الآخرون عن ديارهم أبعدَ من مئة ميل. وعلى النقيض كان بنو إسرائيل شعبًا متقدمًا حيث كانوا يعيشون في مصر تحت حكم المصريين الذين كانوا يحكمون بأنفسهم بلادهم التي كانت أكثر بلدان

العالم حضارة، وكانت سفنهم تصل إلى بلاد إفريقيا وأوروبا والهند وغيرها، وكانت لهم صلات سياسية وحضارية مع باقي العالم. والحق أن مصر كانت يومئذ متقدمة سياسيًّا وحضاريًّا كما هي إنجلترا في هذا العصر. لقد تقدمت إنجلترا اليوم سياسيًا وحضاريًا بحيث من المحال أن يظل سكانها جاهلين بما يجري في العالم، بينما يجهل سكان أفغانستان أحوال العالم لأن بلادهم متخلفة جدًا سياسيًا وحضاريًا. فكانت الجزيرة العربية إزاء مصر كأفغانستان إزاء إنجلترا اليوم. وبرغم أن موسى عليه السلام كان يعيش في ظل الدولة المصرية المتحضرة إلا أنه لم يعرض على الناس إلا تصوُّر "إله بني إسرائيل"، حيث ورد في التوراة مرارًا وتكرارًا: "إله بني إسرائيل يقول كذا"، و"إله بني إسرائيل يأمر بكذا". أما المسيح عليه السلام فقد بُعث في زمن كانت الحضارة والمدَنية قد انتشرت على نطاق واسع، وكانت أوروبا وآسيا قد اختلطتا، ومع ذلك أعلن أنه لم يُرسَل إلا لجمع خراف بني إسرائيل الضالة. وهذا يعني أنه لم يستطع أن يخرج عن تصور الإله القومي رغم اتحاد العالم في ذلك الوقت. لا شك أن المسيح عليه السلام لم يكن يؤمن أن باقي الناس ليسوا خلق الله تعالى، ولم يعتقد أن الله تعالى هو إله بني إسرائيل فقط، كلا بل كان عليه السلام يؤمن أن سائر الناس من خلق الله تعالى، وأنه تعالى هو إلههم كما هو إله بني إسرائيل، ومع ذلك قدّم نفس النظرية الموسوية وقال إن الله أبٌ لبني إسرائيل، وأما باقي الشعوب فهم بمثابة أولاد من أب آخر (متى ١٥: ٢٠-٢٦). وعلى النقيض نجد النبي ﷺ قد وُلد في بلد منعزل عن باقي العالم ومتخلف حضاريًا ومدنيًا، ومع ذلك عرض على العالم، ولأول مرة في تاريخ البشرية، نظرية تقول بأن الشعوب كلها هي خلق الله تعالى، وأنه تعالى إله كل قوم وشعب. لقد أعلن النبي ﷺ أنني عربي مولدًا بلا شك، والعرب هم الذين أُوجه إليهم الخطاب أوّلاً، ولكنني لم أُبعث لهدايتهم والنهوض بهم وحدهم، إنما "بُعثتُ إلى الأسود والأحمر" (مسند أحمد: مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه).. أي لقد أُرسلتُ إلى الصينيين والأفارقة والإنجليز والأمريكان والهنود واليابانيين كلهم، وحياتي منذورة لخير شعوب الدنيا جمعاء. لقد عاش موسى عليه السلام من أجل بني إسرائيل فحسب، وقد عاش عيسى عليه السلام من أجل قومه فقط، وقد عاش

إبراهيم عليه السلام من أجل أهل فلسطين فقط، وقد عاش نوح عليه السلام لأجل أهل العراق فقط، وقد عاش "كرشنا" و"رام تشندر" من أجل أهل الهند فقط. لقد تعرض هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - لصنوف الأذى والتعذيب ولكن من أجل الإسرائيليين أو الفلسطينيين أو العراقيين أو الهنود فقط؛ أما رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى أن يعلن: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:١٦٣).. أي إذا كنت أتحمل هذه الشدائد والآلام فليس لقومي العرب فقط. لا شك أنني قد وُلدتُ بين العرب وهم أول من أخاطبهم، ولكن الحق أنني أقاسي هذا الألم والأذى من أجل الإنسانية جمعاء، لأنني قد نذرت حياتي لله الذي هو رب العالمين، الذي يقوم بربوبية جميع المخلوقات. فلست زعيمًا للعرب فحسب، بل أنا عبدٌ لله الذي هو رب العالمين، وله وقفت حياتي كلها. وما دام تعالى يقوم بربوبية العالمين كلها فكيف يمكنني - وأنا خادمه - أن أتحمل الأذى والألم من أجل شعب معين فحسب؟ كلا، بل أنا خادم الإنسانية جمعاء لأن ربي هو رب العالمين كلهم، وليس رب العرب أو رب بني إسرائيل فقط. ما دمتُ أؤمن برب العالمين فعلي أن أتحمل الآلام من أجل جميع مخلوقاته. ولذلك تكثر في تعاليم النبي ﷺ أقوال من قبيل: "لا فضلَ لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي" (مسند أحمد: مسند الأنصار)، بينما نجد أن المسيح عليه السلام لما جاءته امرأة غريبة عن قومه وقالت: يا أستاذ، أعطِني من الحق الذي جئت به لبني إسرائيل، فبدلاً من أن يتحمل الأذى من أجلها أجابها: "ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب" (متى ١٥: ٢٦).. وهذا يعني أنه اعتبر بني إسرائيل أبناء الله بينما اعتبر الشعوب الأخرى كالكلاب. وعلى النقيض نرى العجب في أوائل أيام الإسلام التي لم تكن أحكامه قد نـــزلت فيها بصورة كاملة، بل لم يكن جزء واحد من القرآن الكريم قد نـــزل بعد، حيث يأتي النبيَّ ﷺ قوم ويسألونه أن يقرأ عليهم من تعاليمه ليهديهم ويرشدهم، وكان بعضهم من اليونان مثل سهيل، وبعضهم من الأحباش مثل بلال، وبعضهم من الفرس مثل سلمان، فلا يقول لهم النبي ﷺ: "ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب"، بل لم يفرّق بين هؤلاء القوم والعرب، فقرأ عليهم من تعاليمه. وليس

هذا فحسب، بل كان هناك أخوانِ يجهلان اللغة العربية ومعلوماتهما ضئيلة جدًا إذ يعرفان شيئًا من الكتاب المقدس، وكانت مهنتهما الحدادة، وكانا يطرقان الحديد، وكان النبي ﷺ يتوقف عندهما من شدة حبه لهما ويصغي لحديثهما، ثم يحاول أن يبلغهما دعوته، ولكنهما كانا لا يفهمان لغته لأنهما من اليونان، فكان يشرح لهما مراده بالإشارات، فمثلاً إذا ذكر اسم الله تعالى أشار إلى السماء، فاستأنسا وآمنا به في نهاية المطاف. (القرطبي)

وكان هناك بلال الذي كان من الأحباش الذين كانوا يُتخذون عبيدًا، ولكن النبي ﷺ لم يكن من الذين يحتقرون شعبًا من الشعوب، بل كان ينظر إلى الجميع بأنهم خلق الله وسواسية عنده. فكان يحب اليونان والأحباش كما أحب العرب، وإن حبه لهم هو الذي جعل الشعوب الأخرى يحبونه ﷺ حبًّا لم يكن كثير من العرب ليفهموا سببه. لقد وُلد النبي ﷺ في مكة، ووُلد بين العرب، وكان من قبيلة قريش التي كانت تعتبر نفسها أفضل من جميع القبائل العربية، فما له وللأحباش؟ المفروض أن يحبه بنو هاشم أو قريش أو العرب، أما الشعوب الأخرى التي قد دمرت جيوشه ﷺ دُولها، والتي قضت الدولة الإسلامية على تفوُّقها القومي، فكيف يمكن أن تحبه ﷺ يا ترى؟ كان من المفروض أن تعادي هذه الشعوب النبي ﷺ، ولكنها قد أحبته ﷺ حبًا جمًا. فبعد وفاة النبي ﷺ بعدة سنوات اجتمع بعض المسلمين في دمشق وقالوا فيما بينهم: كان بلال ﷺ يؤذّن في حياة النبي ﷺ، تعالوا نسمع منه الأذان مرة أخرى. وكان بلال ﷺ قد انتقل بعد وفاة النبي ﷺ من المدينة إلى دمشق. فلما أعربوا له عن رغبتهم رفض وقال: لقد امتنعت عن رفع الأذان بعد وفاة النبي ﷺ، لأنني كلما أريد رفع الأذان تتراءى لي أيام عهد النبي ﷺ المباركة، فلا أتمالك نفسي. وكان عمر ﷺ نازلاً في دمشق في تلك الأيام، فالتمسوا إليه أن يأمر بلالاً برفع الأذان وقالوا: بيننا قوم قد رأوا النبي ﷺ ويتلهفون لسماع أذان بلال مرة أخرى، وبيننا قوم آخرون لم يروا النبي ﷺ وإنما سمعوا عنه فقط، وهم أيضًا يتمنون أن يسمعوا الأذان من هذا الإنسان الذي كان النبي ﷺ يسمع أذانه. فدعاه عمر ﷺ وقال: يا بلال، إن الناس يرجونك أن تؤذن من أجلهم. فقال: أميرَ

المؤمنين، أنت خليفتنا فما دمت تريد أن أؤذن فلا خيار أمامي، ولكن قلبي لا يقدر على رفع الأذان. فقام بلال ﷺ وأخذ يرفع الأذان كما كان يرفعه في عهد النبي ﷺ، فلما انطلق صوته في الجو تذكر الصحابة العربُ العهدَ النبوي المبارك، ففاضت العيون بالدموع وانطلقت صرخات البكاء عالية، أما بلال ﷺ الحبشي الذي كان العرب يسخّرونه لخدمتهم، والذي لم تربطه بالعرب قرابة ولا أُخوّة، فما أن ختم الأذان حتى سقط مغشيًا عليه وفاضت روحه.[٥]

لقد كانت شهادةً من قبل الشعوب غير العربية على صدق ما ادعاه النبي ﷺ بأنه لا فرق عنده بين عربي وعجمي. لقد كانت شهادةً من أجانب سمعوا من صوت النبي ﷺ الحنون ورأوا من آثار صدق هذا الصوت ما ملأهم باليقين بأن شعوبهم أيضًا لا يمكن أن تحبهم كما أحبهم النبي ﷺ.

ثم إن الناس ينسون وقت موتهم آلام الآخرين لأن سكرات الموت تكون مؤلمة جدًا، حيث تقول عائشة ﷺ إنها كانت تظن أن الذي يُقاسي الآلام وقت موته يكون شخصًا آثمًا، ولكنها لما رأت النبي ﷺ وقت موته علمت أنها كانت على خطأ، إذ قاسى النبي ﷺ وقت موته آلامًا شديدةً (البخاري: كتاب المرضى، باب شدة المرض). والمرء عندما يحين موته يُوصي أعزته وأقاربه عادة بأمور دنياه، ولكنك ترى النبي ﷺ أنه حين أصيب بمرض الموت ولم يقدر على المشي جاء يومًا إلى المسجد مستندًا إلى بعض أصحابه، فجمع الناس وقال: كل إنسان يوصي عند موته، وأنا أيضًا أوصيكم وصية ألا وهي أن عبيدكم عبادُ الله مثلكم وإخوانكم، فعاملوهم بالحسنى دائمًا، ومن لم يستطع ذلك منكم فليُعتق عبده، ومن أراد أن يستعين بعبده في عمل فليُطعِمه مما يَطعَم ويكسوه مما يلبس، ومن لم يستطع ذلك فلا حق له أن

---

[٥] يبدو أنه قد حصل هنا سهو، لأن المصادر لا تذكر أن بلالاً ﷺ أُغمي عليه ومات بعد الأذان، بل ورد فيها ما يلي: "إنه أذّن لعُمر بن الخطاب لما دخل الشامَ مرةً واحدة، فلم يُرَ باكيًا أكثر من ذلك اليوم." (أسد الغابة: تحت بلال بن رباح) (المترجم)

يستعين به في خدمته. ثم قال النبي ﷺ: يا أصحابي إن النساء هدفٌ للظلم الشديد، فعاشِروهن بالحسنى وأدّوا حقوقهن.◈

إننا لا نعرف شيئًا عن أحوال الأنبياء السابقين وقت وفاتهم إلا المسيح عليه السلام، فعندما كان معلقًا على الصليب – وإن لم يكن الوقت وقت موته – فتح عينيه ووجد عنده أُمه مريم تقف حزينة، فعلم أنها تخاف من موت ابنها على الصليب، ولن يكون هناك بعده من يرعاها، فتوجه المسيح عليه السلام إلى حواريه "توما" فقال له– وإن لم يستطع أن يكمل كلامه من شدة عواطفه – يا "توما"، هذه أمك، وقال لأمه: أيتها المرأة هذا ابنك، أي أني أثق بـــ "توما" وأجعله ابنًا لك يا أمي، وهذه أمك يا "توما".

لا شك أن هذه العاطفة التي تولدت في قلب المسيح عاطفة سامية للغاية، ولكن الذي ينسى عند وفاته جميع أعزته وأقاربه ويقضي آخر لحظاته في تذكُّر الضعفاء والمظلومين، فما أعظمَه حُبًّا وما أروعَه عاطفة. فإن النبي ﷺ لم يفكر عند موته إلا في المظلومين المقهورين المنبوذين الذين لا حول لهم ولا قوة، وليس ثمة من يرعاهم ويهتم بهم.

◈ أقرب رواية وجدناها بهذا المعنى تقول: "كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال: "اتقوا الله فيما ملكتْ أيمانكم. أطعموهم مما تأكلون، وأن تكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون. فما أحببتم فأَمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، فإن الله ملّككم إياهم ولو شاء لملّكهم إياكم. (تخريج أحاديث الإحياء، للحافظ العراقي، المجلد الثاني الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم)

عن كعب بن مالك قال : عهدي بنبيّكم قبل وفاته بخمس ليال فسمعته يقول: لم يكن نبي إلا وله خليل من أمته وإن خليلي منكم أبو بكر بن أبي قحافة، وإن الله اتخذ صاحبكم خليلا، وإن من كان قبلكم اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد، ألا وإني أنهاكم عن ذلك ثلاث مرار.

ثم أغمي عليه فأفاق فقال: اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وأَلينوا لهم في القول". (كنز العمال للعلامة المتقي الهندي ج١٢ رقم الحديث ٣٥٦٤١) (المترجم)

ثم إن الكلمة التي جرت على لسانه وقت الوفاة هي: "لعَن الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ" (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور). كان اليهود والنصارى يؤمنون بالتوحيد في الظاهر، ولكن النبي ﷺ قد كرِه الذين كانوا يسجدون منهم للقبور. والحق أن النبي ﷺ كان يعني بقوله هذا: أيها المسلمون لا تتخذوا أحدًا رب العالمين، إذ ليس ثمة رب للعالمين إلا الله الواحد الذي هو مالك السموات والأرض.

ثم عندما حانت وفاته ﷺ جرت على لسانه الكلمة التالية: "اللهم الرفيقَ الأعلى، اللهم الرفيقَ الأعلى" (البخاري: كتاب المغازي، باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ). لا شك أن النبي ﷺ قد استعمل هنا لفظ "الرفيق"، ولكن كلمة "الأعلى" تدل على أنه يشير إلى رب العالمين، فكأنما أشار بلفظ "الرفيق" إلى علاقته بالله تعالى، وبلفظ "الأعلى" إلى كونه تعالى رب العالمين.

فثبت أن محمدًا رسول الله ﷺ هو الوحيد الذي أرسى في الدنيا تصوُّر ﴿رب العالمين﴾ في الحقيقة، وإلى الأمر نفسه تشير الآية قيد التفسير، حيث بين الله تعالى فيها أن الأنبياء السابقين كلهم قد جاءوا لهداية أقوامهم فقط، وكان الوحي النازل عليهم مختصًا بقومهم وعصرهم، ولكن الوحي الذي نـــزل الآن قد نـــزل من الله رب العالمين، ومن أجل الشعوب كلها والبلدان كلها، والعصور والأزمان كلها إلى يوم القيامة.

ومن أعظم مزايا هذا الوحي أنه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

يتباهى المسيحيون دائمًا أن روح القدس نـــزل على المسيح عليه السلام، والقرآن الكريم يعلن هنا أنه لم ينـــزل على محمد رسول الله ﷺ روح القدس فقط، بل قد نـــزل عليه ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾. وقد ذُكر نـــزول روح القدس على النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:١٠٣). فمن الخطأ تمامًا القول أن روح القدس لم ينـــزل إلا على المسيح عليه السلام، بل الحق أن الروح القدس قد نـــزل بالقرآن الكريم أيضًا، وقد

نـــزل على الأنبياء السابقين أيضًا. بل يعلن القرآن الكريم أن كل ملاك يكون مقدسًا ومعصومًا، وبالتالي فكل ملاك ينـــزل بكلام الله ﷻ يكون "روح القدس" في الواقع، إذ قد وصف الله تعالى ملائكته بقوله: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٧). فلفظ الملاك نفسه يتضمن مفهوم روح القدس في الحقيقة.

بيد أن القرآن الكريم يمتاز عن غيره من الكتب بكونه قد نـــزل به ﴿الروح الأمين﴾ على الرسول ﷺ، أي أنه قد نـــزل عليه ﷺ بالقرآن ذلك الملاك الذي كان من واجبه أن يوصل القرآن إليه ﷺ بشكل صحيح سليم. وهذا يعني أن الله تعالى قد قام بحفظ القرآن الكريم من الجهتين، فأولاً لم يدَعْ عند نـــزوله مجالاً للخطأ أو النسيان إذ نـــزل به ﴿الروح الأمين﴾، وثانيًا وعد ﷻ بحفظ القرآن بعد نـــزوله حفظًا أبديًا حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:١٠). وكأن الله تعالى قام بحماية القرآن الكريم في الفترتين حالاً ومستقبلاً. ولكن ليس هناك وعد رباني بحماية الإنجيل في الفترتين، إذ لا توجد فيه فقرة واحدة تؤكد حفظ وحيه أثناء نـــزوله أو أثناء بقائه في ذاكرة المسيح عليه السلام قبل أن ينتشر بين الناس، كما لا توجد فيه أيّ فقرة تدل على وعد إلهي بحفظ وحيه إلى يوم القيامة بعدما أملاه المسيح على أصحابه أو قرأه على الناس؛ فثبت من الإنجيل نفسه أنه لا يتمتع بحماية الله تعالى. أما القرآن الكريم فيتضمن الأدلة على حماية الله ﷻ له حماية كاملة. فالآية قيد التفسير تشير إلى حفظ القرآن بدءًا من نـــزول وحيه على القلب المطهر للنبي ﷺ إلى شيوعه بين الناس. أما الدليل على حفظ القرآن الكريم بعد شيوعه وانتشاره بين الناس فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

مجمل القول إنما جيء هنا بكلمة ﴿الروح الأمين﴾ للإشارة إلى أن الله تعالى قد تولى حفظ هذا الوحي على وجه الخصوص كي يظل مصونًا من الفساد الذي قد تطرق إلى الصحف السابقة، وإلا فإن كل ملاك يكون أمينًا. والواقع أن وصف الشيء بصفة معينة يكون إشارة إلى ظهور تلك الصفة فيه بوجه خاص، فعندما قيل

إن هذا الوحي قد جاء به ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ فإنما أُريد به التأكيد أن هذا الوحي متصف بالقداسة بوجه خاص، والحق أن هذه الصفة مشتركة في وحي جميع الأنبياء. ولكن لم يرد عن وحي أي نبي أن ﴿الروح الأمين﴾ قد نـــزل به، وإنما ورد عن القرآن الكريم فقط أن ﴿الروح الأمين﴾ جبريل عليه السلام قد نـــزل به من عند الله ﷻ على محمد ﷺ، ولذلك لم يُحفَظ من بين جميع ما نـــزل من وحي الله على الأنبياء إلا ما نـــزل على محمد ﷺ؛ إذ تعرضت الصحف السابقة كلها للعبث والتحريف بأيدي الناس.

ثم يقول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ﴾.. أي أن ﴿الروح الأمين﴾ مسؤول عن حفظ ما ينـــزل إليك من الوحي بدءًا من نـــزوله إلى أن يسري في قلبك لكي تبلّغه الناس على أحسن وجه. واعلم أن نـــزول الوحي على القلب يعني أن الله تعالى كما يُنـــزل الوحي بكلماته فإنه يُقوّي قلب النبي أيضًا بنـــزوله، بمعنى أن الشخص الذي ينـــزل عليه الوحي يُمنح طهارة القلب والاستقامة والثبات، لكي ينجح في نشر الوحي وإقامته في العالم. إذًا، فنـــزول الوحي على القلب يعني أن صاحب الوحي لا يكون مجرد رسول فحسب، بل إن الوحي يسري في قلبه ويتغلغل حتى يصبح جزءًا من كيانه.

واقع الأمر أن هناك فرقًا بين الوحي التشريعي وغير التشريعي أو الوحي الظلي، وهو أن كل وحي تشريعي ينـــزل على قلب النبي أيضًا لكونه مأمورًا بأن يعلن للناس: ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما نـــزل علي من الوحي (الأعراف:١٤٤)، ولذلك ينـــزل على قلبه أيضًا ليقوي قلبه ويثبّته. لقد أخطأ البعض وخاصة "البهائيون" في فهم هذه الآية، فظنوا أن كل فكرة تخطر بالقلب وحي. كلا، لأن القرآن الكريم والحديث الشريف يبيّنان أن الوحي ينـــزل على اللسان أيضًا، حيث يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾(القيامة:١٧). والحق أن هذا النوع من الوحي يكون وحيًا مزدوجًا حيث ينـــزل على اللسان وعلى القلب أيضًا. أما الوحي الذي ينـــزل على الآخرين فيكون وحيًا ظليًا وبروزيًا، ولا ينـــزل بالضرورة على القلب، بل ينـــزل حينًا على الأذن فيسمع صاحبه كلامًا ويقول:

لقد تلقيت وحيًا كذا، أو تجري كلمات على لسانه فيقول: لقد تلقيت وحيًا كذا، أو يقول: قد جرى على لساني كلام كذا. أما الأنبياء المشرعون فوحيهم – وأحيانًا وحي الأنبياء الظليين والبروزيين أيضًا – لا ينـــزل على الأذن واللسان فحسب بل ينـــزل في وقت واحد على الأذن أو اللسان والقلب، بل الحق أنه ينـــزل في وقت واحد على الثلاثة: الأذن أو اللسان، والقلب والدماغ. ومثاله قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾(الواقعة:٧٨-٧٩).. أي أن هذا الوحي قد نـــزل على صورة القرآن الكريم من ناحية، ومن ناحية أخرى قد أُودعَ هذا الوحي في الفطرة الإنسانية أيضًا.

قصارى القول إن وحي الأنبياء المشرعين ينـــزل على القلب أيضًا ويتغلغل فيه كما يدخل المسمار في الخشب، إضافةً إلى نـــزوله على اللسان أو الأذن. هذه هي الحقيقة التي قد أشار الله تعالى هنا بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ﴾.. أي بما أن هذا الوحي ينـــزل على قلبك فيغمرك باستقامة خارقة، حتى تقول لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك نشر وحدانية الله تعالى فلن أتخلى عن ذلك، لأن وحي الله تعالى ينـــزل على قلبي ولو لم ينـــزل على قلبي فربما رضيت بما تقولون، ولكن لا مجال للاستجابة لما تطلبون، لأن الله تعالى أنـــزل وحيه على قلبي، وثبّتَ عقيدة التوحيد في فؤادي كمسمار حديدي.

إذًا، فإن الذين استنتجوا من هذه الآية أن كل ما يخطر ببال الإنسان من فكرة وخيال هو الوحي منخدعون في الواقع، لأن الله تعالى قد بين هنا أن الوحي ينـــزل على اللسان والأذن وعلى القلب أيضًا من أجل التوثيق والتأييد. أما "بهاء الله" فيعترف من ناحية أنه لا يتلقى وحيًا لفظيًا، ومن ناحية أخرى يعتبر ما يخطر بباله من خواطر وأفكار "وحيًا". ونفس الحال بالنسبة لـــ "غاندي" حيث يسمي هو الآخر أفكاره "إلهامًا" في بعض الأحيان. ولكن الوحي الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ينـــزل بكلمات محددة متكررة مرة تلو المرة، وتجري على القلب أيضًا بالإضافة إلى نـــزولها على اللسان والأذن، وتتكرر جملة واحدة منه مدة نصف ساعة في بعض الأحيان.

ولو أن القرآن الكريم اكتفى بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ﴾ لجاز أن ينخدع أحد ويقول أن القرآن يعتبر كل ما يختلج في قلب المرء من خواطر وأفكار وحيًا. ولكن القرآن الكريم قد صرح في آيات أخرى أن الوحي النازل على الرسول ﷺ ينـــزل على لسانه وأذنه أيضًا ويكون بكلمات معينة. قال الله ﷻ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾(القيامة:١٧-١٨). فهذه الآية تبين بوضوح أن الوحي كان ينـــزل على الرسول ﷺ بسرعة كبيرة، فكان يحاول أن يردده بلسانه بسرعة ليضبط كلماته ويحفظها في ذاكرته حفظًا تامًّا، فطَمْأَنَه الله ﷻ وقال لا حاجة لهذا لأن الوحي النازل عليك وحي تشريعي، والوحي التشريعي لا يُنسَى لأنه إذا نُسي أصبح الوحي المتلوّ ناقصًا؛ فاعلم أن علينا جمع هذا الوحي وقراءته على الدنيا أيضًا، فاقرأْه بهدوء وراء قراءتنا إياه عليك.

فهذه الآية نص صريح على أن القرآن الكريم لم يكن ينـــزل على قلب النبي ﷺ المطهر فقط، بل كان الله ﷻ يُقرِئه إياه أيضًا على الدوام، ومن المحال أن يُقرِئه الله ﷻ وحيه ما لم يكن بكلمات معينة.

ثم إن القرآن الكريم قد صرح في مكان آخر أن هذا الوحي كلام الله ﷻ وذلك دفعًا للوسوسة القائلة بأن محمدا ﷺ قد اعتبر ما اختلج في قلبه من أفكار وحيًا إلهيا. فإن لفظ "كلام الله" إشارة إلى أن ما في هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته كله كلام الله ﷻ، وليس فيه كلمة واحدة هي من افتراء البشر، دعك عن أن يكون مما اختلج في قلبه من خواطر وأفكار. قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦).. أي لو أن أحدًا من المشركين الذين يحاربونك طلب منك الجوار والأمان فعليك أن تجيره ليسمع الكتاب الذي نـــزل عليك والذي هو كله كلام الله ﷻ، فإذا سمع كلام الله أراد العودة إلى قومه فعليك أن توصله إلى المكان الذي يأمن فيه من أي خطر.

كذلك قال الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:٢-٣). فهذه الآية أيضًا تصرح أن آيات القرآن الكريم كانت تنـــزل على النبي ﷺ بكلمات محددة معينة، فكان يقرأها بسهولة.

ثم إن القرآن الكريم يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ويقول أيضًا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ويقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ويقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وكل هذه الآيات تدل على أن وحي القرآن الكريم كان ينـــزل بكلمات معينة.

كذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال إن الوحي ينـــزل عليه أحيانًا "كصَلصَلة الجرس". والبديهي أن صوت الجرس يُسمَع بالأذن. وقال النبي ﷺ أيضًا: "وأحيانًا يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول" (البخاري: كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي). فقد ثبت من ذلك كله أن وحي الله تعالى ينـــزل على اللسان والأذن والعين أيضًا، كما أنه ينـــزل على القلب أيضًا مما يجعل صاحبه أول المؤمنين به. وبما أن القلب منبع جميع العقائد والأفكار فبنـــزول الوحي على القلب يصلُح كل شيء تلقائيًا.

باختصار، إن للوحي مراتب ودرجات، ووحي الأنبياء المشرعين لا يكون من نوع الوحي الذي ينـــزل على الأنبياء البروزيين والظليين. إن الأنبياء البروزيين والظليين يمكن أن ينسوا وحيهم، ولكن الأنبياء المشرعين لا ينسون ما ينـــزل عليهم من وحي تشريعي، لأنهم إذا نسوا الشرع هلكت أمتهم. كذلك لا يُنسى من الوحي الذي ينـــزل على الأنبياء البروزيين والظليين ما يكون شرحًا وتوضيحًا لوحي الأنبياء المشرعين السابقين، أو يكون بيانًا لأمر روحاني خاص، لأن مثل هذا الوحي أيضًا يخضع للقانون الخاص بالوحي التشريعي، لأن الناس بحاجة إلى مثل هذا الوحي أيضًا. لا شك أن الوحي العام أيضًا يكون محفوظًا، فمثلاً لو تلقى المرء وحيًا عن موت أحد وتفشّي الطاعون، فلا بد من حفظه وحمايته لأن الأخبار الغيبية التي يُطلِع عليها الله أحدًا من عباده لو تم نسيانها كلها فبماذا يخبر الناسَ؟ ولكن مثل هذا الوحي لا يتمتع بنفس الحفظ والحماية التي يتمتع بها الوحي التشريعي الذي يُحفظ كل كلمة وحركة منه.

ثم يقول الله ﷻ بعد ذلك: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.. أي أن الله تعالى قد أنـــزل هذا الوحي بلسان يُبين مطالبه ومقاصده أيَّما بيان. والحق أن من أسباب حفظ الوحي أن يوجد في الدنيا من يفهمه، وقد هيأ الله ﷻ هذا السبب للقرآن الكريم ليحفظه به، حيث أنـــزله الله تعالى بلسان يوضح مطالبه أيما إيضاح، كما يتضمن أدلة صدقه بجميع أنواعها. فقد قال الإمام الراغب في كتابه الشهير لشرح غريب القرآن الكريم "المفردات": "العربي: المُفصِح"، والإعراب: البيان". وعليه فقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ يعني أنه تعالى أنـــزل وحيه التشريعي الأخير بلسان يوضح معارفه ومعانيه تمامًا ويفصل كل قضية تفصيلاً، وليس هذا فحسب بل إنه مليء بالأدلة والبراهين أيضًا. وهذا يعني أن إعجاز القرآن لا يكمن في نـــزوله باللغة العربية فحسب، بل في نـــزوله بلسان عربي مبين.. أي بلغة قادرة على الإيضاح ومليئة بالأدلة والبراهين على صحة ما فيها من أحكام، حيث تبين لنا لماذا أعطانا الله تعالى هذه التعليمات، ولماذا أمر بالإيمان بالله وملائكته ورسله، ولماذا نهى عن الكذب، ولماذا أمر بالصدق ومنع من الظلم ودعا إلى العدل والإنصاف. فإن الكذاب يمكن أن يدعي بأي شيء، ولكنه لا يقدر على أن يأتي بدليل على صدق ما يدعي؟ أما هذا الوحي فلم ينـــزل بلسان عربي فحسب، بل هو مبين أيضًا، بمعنى أنه يوضح الكلام تمامًا ويسوق أدلة صحته أيضًا.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾.. أي أن من فضائل القرآن الكريم أنه مذكور في صحف الأنبياء السابقين الذين أنبأوا صراحة بنـــزوله، بل أخبروا أن هذا الوحي سيُقرَأ على الناس بلسان نبي عربي. وعلى سبيل المثال أنقل فيما يلي نبوءة النبي "إشعياء" الذي أنبأ في كتابه عن بعثة محمد رسول الله ﷺ قائلا:

"لِمَنْ يعلِّم معرفةً؟ ولِمن يُفهِم تعليمًا؟ أللْمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثُّدِيّ؟ لأنه أمرٌ على أمر، أمرٌ على أمر، فرضٌ على فرض، فرضٌ على فرض. هنا قليل، هناك قليل. إنه "بشفة الوحشيِّ"* وبلسان آخر يكلِّم هذا الشعبَ الذين قال

* هكذا ورد في النسخة الأردية بينما ورد في النسخة العربية: "بشفة لَكْناءَ." (المترجم)

لهم: هذه هي الراحة، أَرِيحوا الرازحَ، وهذا هو السكون. ولكن لم يشاءوا أن يسمعوا، فكان لهم قولُ الرب أمرًا على أمر، أمرًا على أمر، فرضًا على فرض، فرضًا على فرض. هنا قليلا، هناك قليلا، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء، وينكسروا ويُصادوا فيُؤخذوا" (إشعياء ٢٨: ٩-١٣).

فها هو النبي إشعياء عليه السلام يتنبأ هنا أن الله تعالى سيُنـــزل بعد انقضاء فترة من الزمان لبنًا من السماء ثانية لإزالة جوع الناس وعطشهم، ولكن هذا اللبن سيُسقى لأمة ظل أفرادها مفصولين عن الثدي فترة طويلة، أي الذين طالت عليهم فترة انقطاع الوحي. ومن خصائص ذلك الوحي أن الله لن ينـــزله دفعة واحدة، ولا في مكان واحد أو مدينة واحدة، بل سينـــزل حكمًا بعد حكم، وقانونًا بعد قانون، وفي أماكن شتى، وسوف يكتمل هذا الدستور الرباني في مدة طويلة. ومن خصائص هذا الوحي الموعود أيضًا أنه سينـــزل بلغة أجنبية، وأن ذلك الرسول الكريم سيتكلم بشفة كشفة الوحشي. وكلمة "الوحشي" هنا إشارة إلى كون محمد رسول الله ﷺ نبيًا عربيًا، لأن مصطلح "الوحشي" ورد في التوراة بمعنى العرب، ولذلك سُمي إسماعيل عليه السلام في التوراة وحشيًا (التكوين ١٦: ١٢). والواقع أن هذه الكلمة قد استعملها بنو إسرائيل من جراء العصبية ضد العرب، فكان بوسعهم أن يستعملوا كلمة "العرب" لو خلوا من التعصب، ولكنهم قاموا بترجمة كلمة "العرب" أوّلاً، ثم ترجموا الكلمة المترجمة أيضًا وحوّلوها إلى "الوحشي". ولقد اختاروا هذه الكلمة للعرب لأن مادة "ع ر ب" تعني الإفصاح عما في الضمير على أحسن وجه، وقد سُمّي العرب عربًا لشغفهم بالأدب وولوعهم بالكلام الفصيح البليغ. ولكنهم كانوا يعيشون في الخيام في البادية، فأطلق عليهم أعداؤهم تسمية "الوحشي". وقد استُعملت نفس التسمية في التوراة أيضًا، ولذلك ورد في نبوءة إشعياء النبي "إنه بشفة الوحشيِّ ولسان آخر يكلم هذا الشعب". أي أنه سيُبعث بين العرب وسوف ينـــزل عليه كلام الله سبحانه وتعالى بلسان عربي. وللإشارة إلى الأمر

نفسه قد قال القرآن الكريم: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وقال يجب ألا يتردد هؤلاء في تصديق هذا الوحي لأن هناك نبوءات عن نـــزوله في كتب أنبيائهم.●

ثم يقول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.. أي أليس آيةً لهم أن علماء بني إسرائيل أيضًا يعلمون هذا القرآن.. بمعنى أن أنبياء بني إسرائيل الذين خلوا قبل محمد ﷺ بأحقاب طويلة قد أنبأوا بنـــزول هذا القرآن، وقد تحققت أنباؤهم فيه ﷺ والقرآن الكريم، أفلا تكفيهم هذه الآية للإيمان بالقرآن؟

وهذه الآية تُلقي الضوء على مسألة أخرى أيضًا، ذلك أن الله ﷻ يقول في الآية التي قبلها: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾.. أي أن القرآن الكريم مذكور في الصحف السابقة. والمعروف أن الصحف إنما تنـــزل على الأنبياء، بينما تقول هذه الآية أو لم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل، فثبت من ذلك جليًا أن المراد من الأنبياء هنا أولئك القوم الذين نـــزلت عليهم تلك الزبر والصحف؛ وبما أن النبي ﷺ قال: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل" (مكتوب الإمام الرباني، الدفتر الأول الجزء الرابع ص٣٣ المكتوب رقم ٢٣٤)، فنستطيع، بناءً على هذه الآية، أن نقول بكل جزم ويقين أن هذا الحديث النبوي يعني "أنبياء أمتي كأنبياء بني إسرائيل".. أي سيأتي في أمتي أنبياء من نوع الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل. بيد أن هذا لا يعني إمكانية مجيء نبي مشرع في أمة الرسول ﷺ، ذلك لأن المشابهة قد تكون في كل الأمور وقد تكون في بعضها. وبما أن الله ﷻ قد وعد في القرآن الكريم بحفظه دائمًا، فمن المحال أن ينـــزل بعده أي شرع جديد. إذًا فلن يأتي في هذه الأمة إلا نبي ليس معه أي شرع جديد. والحديث يؤكد أن الرسول ﷺ قد سلّم بمجيء هذا النوع من الأنبياء في الأمة.

● ومن يرغب في المزيد من الاطلاع على هذه النبوءات فليرجع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ﴾ (البقرة:٤٢) في المجلد الأول من هذا التفسير. (المؤلف)

وبوسع كل إنسان يتدبر هذه الآيات أن يدرك كيف أن الله ﷻ قد تناول موضوع صدق القرآن وعظمته وضرورته بأسلوب شامل ورائع. فبيّن أوّلاً: أن هذا الكتاب قد أنـــزله الله ﷻ؛ وثانيًا: أنه قد نـــزل به جبريل عليه السلام؛ وثالثًا: أنه قد نـــزل على قلب إنسان طاهر مقدس مثل محمد ﷺ؛ ورابعًا: أنه قد نـــزل لتحذير الضالين من الأخطار التي ستواجههم في حياتهم؛ وخامسًا: أن لغته اللسان العربي المبين؛ وسادسًا: أن أنباء نـــزوله لموجودة في الصحف السابقة، أو أن هذا الكتاب يشبه الصحف السابقة في أحكامها الجوهرية، فإنكاره هو إنكار جميع الديانات وكافة الرسل في الحقيقة، والإيمان به يمنح صاحبه جميع البركات والأنوار التي تمتع ببعضها بعض الشعوب في عصر معين، بل إن من ذاق حلاوة الإيمان فيكفيه آيةً أن أنبياء بني إسرائيل أيضًا قد تنبأوا بنـــزول هذا الكتاب. فمن يكفر به، رغم هذه الأدلة على صدقه، أفلا يكون محرومًا من البصيرة الروحانية؟

وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٩﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٠﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٣﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٥﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٦﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٧﴾ مَآ

أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٩﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢١٠﴾

شرح الكلمات:

الأعجمين: جمعُ الأعجم، وهو من لا يُفصِح ولا يبيّن كلامه وإنْ كان من العرب؛ وأيضًا من ليس بعربي وإن أفصحَ بالعجمية. (الأقرب)

سلَكْناه: سلَك الشيءَ في الشيء: أدخلَه فيه كما تُسلَك اليدُ في الجيب والخيطُ في الإبرة (الأقرب).

مُنظَرون: أنظرَ المعسرَ: أمهلَه (الأقرب).

التفسير: وكما سبق في شرح المفردات فإن من معاني "الأعجم" من ليس بعربي وإن أفصحَ. وهذا هو المعنى المقصود في هذه الآية حيث بين الله ﷻ أننا لو أرسلنا هذا الكلام مع شخص غير عربي لقال هؤلاء إنه ليس من قومنا، ولا نعرف أحواله فربما يخدعنا، ولكن محمدًا رسول الله ﷺ قد بُعث من بين العرب، وهم يعرفون أحواله جيدًا، فكيف لا يعرفون صدقه من كذبه؟ فإن الذي لم يكذب على الناس في حياته كلها قط، كيف يفتري على الله تعالى؟ ولذلك أمر الله ﷻ رسوله ﷺ في مكان آخر من القرآن الكريم بالإعلان التالي: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(يونس:١٧).. أي أفلا تفهمون، يا قوم، أن الشخص الذي كنتم تعترفون بصدقه وسداده حتى الأمس كيف يمكن أن ينقلب فجأة ضد الحق والصدق، فيفتري على الله ﷻ؟ وهنا أيضًا قد نبه الله ﷻ الكافرين إلى الأمر نفسه وقال إن محمدًا ﷺ من العرب ومن سكان مكة، فلو كان قد عاش في بلد أجنبي فكان بوسعهم أن يقولوا لا شك أنه من قومنا ولكنه قد عاش في الخارج، ولم نطلع على أحواله، فلا نستطيع الجزم بصدقه أو كذبه. أما الآن، فلم يبقَ أمامهم مجال للإنكار لأنه ﷺ من قومهم أوّلاً، ثم إنه قد عاش بين ظهرانيهم طفلاً وشابًا، فيعلمون أخلاقه جيدًا بل يشهدون أنه لم يكذب قط، وإنما بلغ من الصدق والأمانة ما

جعلهم يعتبرونه أكثرهم صدقًا وأمانة. فكيف يعتبرونه كذابًا رغم هذه البراهين الدالة على صدقه من ناحية، ورغم تحقُّق نبوءات الأنبياء السابقين في شخصه من ناحية أخرى.

وبما أن العرب عارضوا نبينا ﷺ غاضّين النظر عن كل هذه البراهين الدالة على صدقه، فقال الله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.. أي أن إنكار قومه ﷺ دليل على أنهم يحذون حذو مَن قبلهم من الأمم. فإنهم قد رأوا الآيات من موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومع ذلك كفروا بهم، وأهل مكة أيضًا يتبعون خطوات السابقين، ولن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.. أي سيأتيهم العذاب حتمًا ولكنه سيفاجئهم بغتةً كما هي سنة الله المستمرة منذ القدم، فيأتيهم من حيث لا يدرون.

وبالفعل تجد أن حادث يوم الفتح قد وقع فجأة حتى حيّر أبا سفيان أيضًا الذي كان من الزعماء المحنكين المجربين. فإنه لما رأى حول مكة نيرانًا مشتعلة في ظلمة الليل أمام خيام عشرة آلاف جندي قال لرفاقه مذعورًا: ما هذا الذي أراه؟ هل نـــزل جيش من السماء؟ فليس هناك قبيلة عربية يبلغ جنودها هذا العدد الهائل. فأخذ رفاقه يذكرون له أسماء مختلف القبائل، فكان يرفض رأيهم في كل مرة ويقول: كلا ليست هناك قبيلة عربية لها مثل هذه الجنود. وبينما هو يتحدث مع رفاقه فاجأه حرس المسلمين، وألقوا القبض عليه وعلى أصحابه. (البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، وتاريخ الخميس: غزوة فتح مكة)

ثم إنك ترى أن هؤلاء القوم آمنوا بالنبي ﷺ بعد رؤية العذاب كما كان القرآن الكريم قد أنبأ من قبل، مع أن أكثر أقوام الأنبياء السابقين لم يؤمنوا بهم هكذا، مما أكد أن الله ﷻ عزيز ورحيم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ۝ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

﴿يُمَتَّعُونَ﴾.. أي حينما يؤجَّل عنهم العذاب يقولون في مجالسهم لعلنا أفضل من الأمم السابقة، ولعل العذاب لن يحل علينا عاجلاً، وهكذا يتحدّون غضب الله ﷻ باستهزائهم وسخريتهم، ويريدون أن يعجّل لهم العذاب. لِمَ لا يفكر هؤلاء أننا لو أخّرنا عنهم العذاب بعض الوقت ثم أهلكناهم فماذا ينفعهم تأجيل العذاب؟ إنما ينفعهم أن يؤمنوا ويهتدوا، ولكنهم لا يسلكون طريق الهدى.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.. أي ليتهم يفكرون فيما إذا كنا قد أهلكنا قبلهم أية قرية بدون إقامة الحجة على أهلها. فما دام التاريخ يشهد أنه لم يحل العذاب بقوم إلا بعد بعثة نبي فيهم ليعظهم وينصحهم بترك السيئات، لذا لو أنـــزلنا عليهم العذاب بدون إنذار لكنا ظالمين عند الناس، ولكنا لا نفعل هكذا ولا نهلك قومًا بعذابنا بدون الإنذار. فعلى هؤلاء القوم أيضًا أن يدركوا أنه ما دام قد جاءهم منذر فلا بد أن يأتيهم العذاب أيضًا نتيجة كفرهم به، ذلك لأن العذاب كما لا يأتي إلا بعد مجيء منذر، كذلك يأتي العذاب حتمًا بعد إنكارِ منذرٍ، لأنه إذا لم ينـــزل العذاب بعد إنكاره لعُدّ من الكاذبين المفترين.

وقد بين الله ﷻ بقوله ﴿ذكرى﴾ أن الغرض الأساس من بعثة المنذرين أن يتعظ الناس ويصلحوا ما بأنفسهم، وليس أن يُهلَكوا ويُدمَّروا، ولذلك يُؤخَّر العذاب عن قوم رغم مجيء منذر إليهم، لكي يؤمن به من يؤمن. ولكن لو حل العذاب بعد بعثة نبي فورًا لم تبقَ هناك فرصة للذين يريدون أن يتعظوا ويتوبوا.

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٣﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٤﴾

التفسير: لقد رد الله ﷻ هنا على أحد مطاعن الكافرين حيث قالوا إن محمدًا ﷺ على صلة مع الشيطان – والعياذ بالله – وهو الذي يوحي إليه.

لا شك أن القرآن الكريم لم يذكر هذا الاعتراض بكلمات محددة، إلا أنه قد أشار إليه في أماكن شتى كقوله ﷻ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾(التكوير:٢٦)، كما قال الله ﷻ هنا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾.

من المؤسف أن بعض المفسرين قد دعموا هذا الاعتراض الذي قد أثاره الكافرون وبالتالي قد ناولوا أعداءَ الإسلام سلاحًا خطيرًا. فيقولون أن رؤساء الكفر بمكة جاءوا النبي ﷺ مرة وقالوا إنه لم يؤمن بك إلا أراذل القوم، ولو لِنتَ في موقفك حضرنا مجلسك ليحضره باقي القوم أيضًا. وبينما هم في هذا الحديث حان وقت الصلاة، فقرأ النبي ﷺ في صلاته قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾(النجم:٢٠-٢١)، فألقى الشيطان على لسانه ﷺ الكلمات التالية: "تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى".. أي أن هذه الأصنام ذات الأعناق الطويلة عظيمة وأن هناك أملاً في شفاعتهن. ففرح الكافرون لسماع هذا القول من لسان النبي ﷺ، فلما بلغ نهايةَ السورة سجد فسجدوا كلهم معه ظنًّا منهم أنه ﷺ قد ليّن موقفه. (فتح البيان: قوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا إذا تمنى...)

وقد رُويت هذه الرواية بطرق شتى حتى اضطر عالِمٌ عظيم بمكانة "ابن حجر" أيضًا إلى قبولها وتأويلها. (المرجع السابق)

وإني لن أخوض في تفاصيل تأويله الآن إذ سبق أن ناقشنا هذا الموضوع في سورة الحج بالتفصيل، وإنما أريد أن أناقش صحة هذه الواقعة أو عدمها.

ويُعجبني كثيرًا موقف القاضي "عياض" بهذا الصدد حيث قال إن هذه الرواية قد أملاها الشيطان على بعض المحدّثين.. أي إذا كان لا بد من التسليم بسلطة الشيطان على أحد فلمَ لا نقول إن الشيطان قد وسوس لبعض المحدثين فاختلق هذه الرواية.

أما الجواب على ضوء ما ورد في القرآن الكريم فهو كالآتي:

يقال أن هذه الجملة المزعومة قد أجراها الشيطان على لسان الرسول ﷺ بعد ما قرأ قوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾. في حين أن الله ﷻ يقول في الآية التالية: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾(سورة النجم:٢٢-٢٤). كيف يُقال أن النبي ﷺ قرأ بين هذه الآيات الداحضة للشرك ذلك الكلامَ المزعوم، على سبيل المداهنة في عقائده، فسجد الكافرون معه؟ كلا، فمن المحال لأي كافر مهما بلغ من الحمق والغباء أن يسجد مع النبي ﷺ بعد سماع هذه الآيات القرآنية الداحضة للشرك. فإن هذه الآيات من سورة النجم تدل دلالة ساطعة على أن إقحام تلك الجملة المزعومة في هذا السياق مستحيل. كان الكافرون يعرفون اللغة العربية، فكيف يمكن ألا يدركوا أن كل كلمة من هذه السورة تبطل الشرك؟ فكيف يُقال، والحال هذه، أن النبي ﷺ مال إلى المداهنة في عقائده؟

هذا هو الموضوع الذي تناوله الله ﷻ في الآيات قيد التفسير، فبيّن أن اتهام الكافرين النبي ﷺ بنـــزول الشيطان عليه بوحيه لاتهام باطل، وذلك لعدة أسباب. فأولاً: إن هذا الإنسان طيب السيرة طاهر الشمائل، فمن المحال أن يكون للشيطان أي صلة بمثل هذا الإنسان العظيم.

وثانيًا: إن التعاليم التي نـــزلت عليه مقدسة فلا يمكن أن يُنـــزلها الشيطان النجس، إذ كيف يمكن أن يُعلّم الشيطان الناسَ ما فيه هلاكه؟! فما دام الوحي النازل على محمد ﷺ يُعلّم محاربة الشيطان فمن المحال أن يكون نازلاً من الشيطان؟

وثالثًا: إن هذا الكتاب مليء بالمعارف السماوية ويبطل تعاليم الشيطان مرة بعد أخرى، فلا يستطيع الشيطان ولا أعوانه أن يدسّوا فيه شيئا مهما حاولوا ذلك، إذ لن ينسجم في آياته شيء من كلام الشيطان. كما أن الشياطين لا يقدرون على بيان معارف السماء، حيث ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.. أي أن الله ﷻ لم يسمح لهم بسماع ما يجري في السماء من حديث. فالقرآن الكريم يُعلن أن لا أحد من الشياطين يقدر على الوصول إلى السماء، دعك من أن يصلوا إليها ويسمعوا ما يجري فيها من حديث.

ومن المستغرب أنه برغم أن الله ﷻ يعلن هنا أن الشيطان لا يقدر على سماع حديث السماء فإن بعض المسلمين يعتقدون أن الشيطان يصعد إلى السماء ويسمع ما يجري عند العرش من حديث بين جبريل والملأ الأعلى، ثم يعود إلى الأرض، ثم يوحي إلى رفاقه وأعوانه تلك الأخبار (الرازي). مع أننا نرى في هذه الدنيا أن الناس لا يستطيعون أن يصلوا إلى الملوك الصغار والضعفاء أيضًا، بل يخافون ويرتعدون من الاقتراب منهم، فما بالُك بالله ﷻ الذي هو الإله؟ كيف يقدر الشيطان على أن يسترق أسرار إله السماوات والأرض، ثم يشيعها في الناس بصورة مشوهة ممسوخة.

باختصار، إن القرآن الكريم يُفنّد اعتراض الكافرين، مبينًا أن هذا الكلام لم تنـــزل به الشياطين بل إنهم لا يقدرون على ذلك بمعنى أن أحكام القرآن الكريم متعارضة مع ما يعلّمه الشيطان، فكيف يمكن أن يُنـــزل الشيطان بنفسه على محمد ﷺ ما يتعارض مع التعاليم الشيطانية؟!

وهذا الدليل قد قدمه المسيح عليه السلام أيضًا حيث ورد في الإنجيل:

"وكان يُخرِج شيطانًا وكان ذلك أخرسَ، فلما أُخرِجَ الشيطان تكلَّمَ الأخرسُ، فتعجب الجموع. وأما قوم منهم فقالوا: بِبَعْلَزَبُولَ رئيسِ الشياطين يُخرِج الشياطينَ. وآخرون طلبوا منه آية من السماء يُجرّبونه. فعلِم أفكارهم وقال لهم: كلُّ مملكة منقسمة على ذاتها تخرَب، وبيت منقسمٍ على نفسه يسقط، فإن كان الشيطان أيضًا ينقسم على ذاته، فكيف تثبُت مملكته؟ لأنكم تقولون إني بِبَعْلَزَبُولَ أُخرج الشياطينَ." (لوقا ١١: ١٤-١٨).

وكذلك ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال لهم:

"فإن كان الشيطان يُخرج الشيطانَ فقد انقسم على ذاته، فكيف تثبُت مملكته" (متى ١٢: ٢٦).

وقد قدّم القرآن الكريم هنا الدليل نفسه أمام المعارضين وقال لهم: إذا كان صحيحًا ما تقولون بأن الشيطان يُنـــزِل هذا الوحي على محمد ﷺ فقد قتل الشيطان نفسه بنفسه، ذلك لأن كل كلمة من هذا الكتاب تلعن الشيطان، وكل

حكم منه يدين الشيطان، فكيف يمكن أن ينـــزل الشيطان كل هذه الأدلة والتعاليم ضد نفسه؟! هذا خلاف العقل.

أما قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.. فيعني أن هذا القرآن يتضمن أخبار الغيب، ولا قدرة للشيطان على الإدلاء بأخبار الغيب. وهذا الدليل أيضًا قد ورد في الإنجيل حيث بيّن المسيح عليه السلام أن الله ﷻ وحده يعلم الغيب، وأن أسراره لا يطّلع عليها حتى الملائكة ناهيك عن الشياطين. فذات مرة أخبر المسيح عليه السلام قومه عن علامات مجيئه الثاني، وأكد لهم أن ما يقوله لن يزول، بيد أنه أوضح لهم أيضًا وقال:

"أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده. وكما كانت أيامُ نوح كذلك يكون أيضًا مجيءُ ابن الإنسان، لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوّجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوحٌ الفُلكَ ولم يعملوا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميعَ، كذلك يكون أيضًا مجيءُ ابن الإنسان." (متى ٢٤: ٣٦-٣٩).

إذًا، فإن حياة النبي ﷺ الطاهرة المنـــزهة عن كل عيب، وتعاليمه المقدسة المطهرة، وكون القرآن متضمنًا علوم السماء وأخبار الغيب بكثرة، ثم عدم قدرة الشياطين على بيان علوم السماء، كل ذلك يدل بشكل قاطع على بطلان تهمة الكافرين بأن الشيطان على صلة مع محمد ﷺ، وأنه هو الذي يُنـــزل عليه هذا الوحي. الواقع أن محمدًا ﷺ ليس له أية صلة بالشيطان، بل هو على صلة مع الله ﷻ، وهو الذي يُنـــزل عليه هذا الوحي.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾.. أي أيها المسلم لا تدعُ أحدًا سوى الله ﷻ، فهو الذي يمكن أن يُطلعك على أسرار الفطرة الصحيحة، ولن يُساعدك على هذا سواه. أما إذا توجهت إلى غير الله ﷻ لمعرفة أسرار الفطرة الصحيحة: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾.. أي سيدفعك تعليم غير الله تعالى إلى العذاب تلو العذاب، ولن تنعم بالراحة أبدًا.